فواتير عصر

غريبة بخلاف

فواتير عصر

مجموعة قصصية

غريبة بخلاف

لكتـــــــــــــاب فواتير عصر

للمـــــــلؤـــــــف غريبة بخلاف

تصميم الغـــــلاف: HERO

المراجعـة اللغوية:

الطبعة الأولي:أعسطس 2019

رقـــم الإيـــــــداع: 2019--14420

الترقيم الدولى : 978-977-6757-01--1

الإخــراج الفنـــــي : MK for Publishing and Distribution

المدير العام: محمد عبدالعال قاسم

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش احمد عبد الرحيم - الملك فيصل -جيزة

موبايل: 01003002847

البريد الإلكتروني: mkbookstor@gmail.com

إهداء

سلام على كل من حرم الحرية وهوحر لا تقيده حدود تراب. إلى كل من فقد السلام.....

إلى كل الذين ألقى بهم القدر في دربي...حيث كنا نفر لهدف واحد نرتشف من الأيام بمذاق واحد.

إلى الذين علموني كيف أنتقم من ظلمهم بقطرات حبر. كيف أبكي على الورق وأرسم بحروفي مطفأة حزني.

إلى الذين كبلوني من عناق السنين كي أموت من خيبات حبهم...فتعلمت أن لكل خيبة باب. حين يفتح أشرق من جديد.

إلى ذلك الأمل الذي يشتعل نوره في كل مكافح يضخ الحياة على منصات الوجود.

إلى الذين لم يهربوا إلى جلادهم وظلوا في ترابهم يرتشفون صبرهم قطرة قطرة حتى نفد.

إلى روح أبي الغالي الذي علمني كيف أعيش مناضلة بالحياة ورحل.

إلى روح أمي دوما....التي تشرق داخلي ما دام قلبي ينبض كما علمته حين كنت أسكنها بأمان.

إلى كل من يعشق الحرف الصادق والإحساس الصادق. لكل مرتشف

للحرف ليلهب نشاطه ويرتجل قاصدا منافذ الأمل.

غريبة

تقديـــــم: المحســـــن بـــن هنيــة

القصة جنس أدبي يتأبى على الانضباط في شكل محدد، ويزدهر في ظل تيارات التمرد والرفض ومراحل القلق والتوتر في حياة الشعوب، من هنا يعكس هذا النوع الأدبي الجديد العلاقة القوية بين البنى الأدبية والاجتماعية، ويمزج بين واقعية الرؤية وشاعرية الأسلوب، وذلك ما حدى ببعض النقاد إلى أن يطلقوا عليها مصطلح « قصيدة النثر»*.

وينبغي أن ننبه إلى أن القصة القصيرة ليست نوعا أدبيا مستقلا، وإنما نوع من أشكال الفن القصصي القصير، حيث تقف هي والرواية على طرفي نقيض من حيث القصر والطول أوالإنكماش والتضخيم، وعلى هذا فإن الاختصار أوالتكثيف يعد من أهم مبدأ جمالي في تشكيل البنية السردية للقصة القصيرة.

‹› طـــه وادي ‹›

تأخذنا المبدعة غريبة بخلاف فيتطواح بين نصوصها القصصية إلى عوالم من المراوحات في ثنايا المعيش اليومي بضجيجه وصمت هو

فجائعه وأفراحه. تأخذنا في مركبة سرد ألواحها من إحساس ذاتها هي، كأنه بصمات لا تتواتر مع غيرها هي كالملامح والحوامض الأمينية أوالموارثات الجينية.... ما أن تقرأها حتى تتيقن أن هذا المقروء بقلم غريبة بخلاف..... ثم يدهشك أنها لا تذهب بعيدا بل تلملم زهور باقاتها القصصية من حديقتها هي فيتكون إبداعها وأدبها مما حولها لتكشف لنا أن الصدفات ليس في أعماق المحيطات بقدر ماهي في السواقي أمامنا وحولنا.

بمباشريتها تأخذك ببساطة رقيقة وإحساس مرهف... فتذكرك أن

المفقودة التي لا تنسى ‹› الأم ‹›** وما أدراك ما الأم

‹› على خلاف الأيام ليس فيه عبق قهوة أمي، لايحويه ذلك الدفئ الممتد أمام قدمي. حين لاح الفجر بنوره صرت لا أسمع تسبيحها هواليوم الذي لم أسمع فيه دعاءها وقت الصباح كل شيء بدا كالحلم المفزع هدوء لا تحويه حركة.

السيدة بخلاف لا تتسلق هضاب المتون الحكائية العصيّة بمقدرة فائقة.... تترك وتسمح لنبع أحاسيسها ومشاعرها لتدل على عملها الكاشف لخبايا دواخيلها ورواؤها للمتحرك على بساط اليومي المعيش ولا يجنح بها الخيال فتلملم مادة إبداعها من جوهر حصياتها ثم تستحضر إمتداد مواضي الذكريات والقواسم المتصلة بمحدثات اليومي الموضوع لتعزز نسجها الروائي وترافق أحداث النص ليشكل في بهائه لذيذا مستساغ من ذلك كهذه التي التقتها بمقر الإدارة : صباح الخير..... ردت وهي تمد يديها لتطبطب على كتفي:

كيف حالك يا أبنتي.... اقتربت مني أكثر وهي تبتسم وقالت أمكي صديقتي، فكيف حالك وكيف حال العائلة اليوم.»

نعقد عقدة القصة وقد زالت الغيبوبة (فتحت عيناي فإذا بطيفها يرحل وينجلي كالضباب المبعثر....) وتتضح الرؤيا. استيقظت على صوت آذان الفجر فرحت أدعومن دعواتها التي زرعتها بالبيت لتزهر بقلوبنا مرتفعة باتجاه السماء.

فهذه القصة بقدر ما فيها من هذه النواثر المنثورة طيبا... يشوبها تمطيط يوّلد الملل ويجنح بها عن حدود فن القصة إلى تخوم الرواية ثم بدون عنف ولا حتى سخط تبسط الإشكاليات والتكاسل الإداري وذلك في نصها ‹› مفاتيح في غياب أقفال›› يهتز فرحا الشاب الذي دمرته البطالة واليأس من الحصول على

شغل ثم نرى كيف توسط والده الشيخ العجوز الذي كان مناضلا في جيش التحرير.... كانت لتدخله استجابة فحصل الولد عل شغل محترم.... يوم إستلام الوظيفة ‹› بش له المدير وسأله:

كيف حال عمي إبراهيم....؟ وكان من واجب الشاب أن يرد بلباقة: ‹› لا باس ويسلم عليك.....ثم أخذ يتأمل المكتب الفخم والمدير الشاب الذي يبدوأنه لم يبلغ الثلاثين بعد.....وسؤال إستفهام يدور في ذهنه ‹› أفي هذه السن حصل على خبرة تأهله أن يصل إلى مرتبة مدير....

أصبح ما كان عاطلا محل ثقه لما هوعليه من جدية وإنظباط... فكلفه المدير بنيابته عند سفره.هكذا تكتب السيدة بخلاف بإنسياب وتلقائية ولا تماشي المدارس النقدية الجديدة في طرق وأساليب الكتابةالقصصية.بل تقتبس من الحياة، أن الأيام لا تضحك بإستمرار لابد لها أن تعيش حتى تكشر يوما.

قلنا أن بخلاف المبدعة الصاعدة ذات الإحساس الرافض لكل مذموم، من هذه الجبلة يلتقى حسها مع شخصية خالد فيحس بحس منشئته... هوالذي كان لسنوات عاطلا فيبلغ مكانه نيابة المدير فيصتدم بحقيقة لا تقبل في مذهبه وذلك بعد أن اكتشف ما بالدفاتر والملفات المرصفة في خزانة المدير المسافر.

يفزع وينزعج للسفالة والخيبة ويسترجع معاناة محاربة المستعمر وجراحات والده وإهراق الدماء... من أجل طرد الإستعمار المبتز صدمها لإكتشاف ودفع به أن يسارع مستقيلا هاربا إتفاقا مع صوت ضميره.... ابن المناضل الحق فلا يمكنه إدارة مالا يتفق مع سلوكه أوضمير أبيه الذي حمل سلاحه وكفنه وتمرد من أجل أن يكون الحق قائما والباطل مدحورا

ثم نبحر مع الكاتبة في قصص تختلف بنية عن ‹›غيبوبة

إحساس» و›› مفاتيح في غياب أقفال ‹‹

حيث كان بإمكانها أن تحولهما إلى روايتين أما القصص الموالية فيها روح القص الحديث إحاء وتكليفا. ومع إلتزامها بخطها وعدم التمرد على بصماتها المتفردة في السير خلف أبطالها جنب إلي جنب مرافقة لهم في معيشهم حتى إنها لاتماسي مقولة بعض النقاد الرافضين بعلم الكاتب بما في نفوس أبطاله- بل هي تصر على العلم بما في نفوسهم، من ذلك أنها تماشيهم حسب مذهبها العقدي والفكري والمثال عم على فيكون مساحة ود وصورة ناطقة من صورها الملموسة، وهوأن العم على يلهوفيها الأطفال وهي معهم طفلة، عم علي يهرم لكن لا تفتر علاقته بالأطفال حتى وإن كبروا وساروا رجالا ونساء هم عنده أبناؤه

لكل شيء نهاية... حَمُ الأجل والعم علي يرتحل ويصبح ذكرى مرسومة في الخيال مخزنة فالذاكرة وتسحب من هذه الخزانة الكاتبة ‹‹ زمن لن يعود ›› قصة مكتملة من صورها، الزمان الذي أدبر

ثم فواتير عصر هي القصة العنوان لهذه المجموعة محورها حالة عامة لكل من يتقاضى راتبا هي صورة من الواقع بثتها الساردة على الورق:

مع العلم أني أملك غير راتبي الذي أنفقه في متطلبات البيت فتلك الفواتير التي لا تتوه عن عنوان بيتنا هي كفيلة أن تعيد الراتب إلى الخزينة ففواتير التي لا تتوه عن عنوان بيتنا هي كفيلة أن تعيد الراتب إلى الخزينة ففواتير الكهرباء والغاز والأنترنت والماء وإضافة إلى وصفات الدواء لأمي وإلى فاتورة الهاتف كلها تجعلني أفلس قبل أن يصل آخر الشهر.

قد لا نوغل في هذه الإستشهدات ولذلك لوحدة الموضوعات في

تناولاتها لقضايا حيازاتها من مصب واقعي تختلف فيه المواضيع ولكن تتوحد عندها الأهداف لبسط تعقيدات إجتماعية تشق المعيش لليومي

من ذلك الصورة السربالية الكاريكاتورية في توقيع مجنون ‹›*** الذي غير مجرى حياته من الواقع إلى الخيال.

فنظرته للحياة فيها من جاوز المعيش في الحياة منزوع منها الهم... تجرى فيها الأحداث خارج أفكار مقيدة تضع لحريته قطبان اللياقة واللباقة، هكذا تحرر من الواقع من إثراءات هذه القصة نزوع فكري هادف من غير السقوط في الوعظية من غير أن تفسد الأسلوبية القصصية

أما دعاء وغيث الصورة فيها لاصقة بمعتقدات أهل القرية بعرض كاريكاتوري ساخر وكأن الناس همهم منذ غرق فرعون وبعد أن أدركه الغرق قال: أمنت برب موسى.. فأنجاه ربي م الغرق ببدنه، وأخرى كالذين ركبوا البحر فجاءهم موجك ا لجبال تصايحوا، ربنا لوأنجيتنا لنكونن من الصالحين لما أنجاهم عادوا لما كانوا يفعلون.

(*) الرواية المغاربية: د. عباس إبراهيم ص 350

(**) نفس المرجع

(***) المرجع السابق: فاطمة أزويل - الرواية في المغرب: ص 210

مقدمة

نكتب عازفين على الأحرف، فتصدر أناملنا عزفا ينبع من الإحساس يستميل القلب إلى الحقيقة أحيانا، وإلى الخيال أحيانا أخرى. فنلقي حرقة أنفاسنا وانصهار أرواحنا على الورق.

أحيانا نثور فترسم حروفنا ثورة، قد ترمى على الورق شظاها كي تخمد ألسنة النيران التي بداخلنا كبراكين ثائرة.

لن نموت ما دامت الأحرف تصرخ، ما دام القيد لم يطل أناملنا.. لم يسجن أقلامنا، سنبقى كاشفين عن هويتنا في عصر صار العيش فيه مكلفا.

ولكننا سنبقى رافعين الأعلام والأقلام إلى حيث يكون الوجود الذي نشتهي ونتمنى.لن تعدم الأوطان ولن تجف الأقلام.

إننا نموت حين نكتب... ونعيش حين نقرأ...يكون القلم هوالجسر بين الموت والحياة إننا نخلد حين نكشف عن منابع ذواتنا نكون حاضرين بقوة الوجود الخالد. كل حرف هوبصمة لروح ولمكان ولزمان ولعصر ما.

قد نكتب عن الحرية ونحن في أمس الحاجة لها، ونكتب عن القيد ونحن نغزوالفضاء مسافرين حيث القمر.

لقد بات العصر متناقضا وأصبح الشيء الذي بين أيدينا باهت الأضواء.

فلا نور غير إشراقة نورنا الداخلي، الذي يسطع من داخل الإحساس كي ينعكس على كل ما هومبعثر حولنا. فالأنوار الخارجية كاذبة وليست إلا لمعة تتوهج ملتهبة تلسع النفس

البشرية.

عبر هذه الأحرف وعبر جسور هذه المجموعة القصصية رحت أدون ما رماه العصر على بساط الحياة فقد صار للتقدم مساوئ راحت تجرف منا لذة الحياة ومتعتها، نظن أننا تحررنا وقد أصبح العالم بين أيدينا..رحنا نعلن تواصلنا..... التحامنا.....في غمرة الزحام والتواصل بين كل هذه المساحة الشاسعة للعالم.

لقد أصبحنا تائهين، مختلطين، لا نعلم أين منابع تاريخنا ولا حدود هويتنا صرنا نتخبط هنا وهناك راكضين عبر شعلة من نور نلاحقها وهي تهرب منا كطيف.أهملنا اللب فينا وراحت حياتنا تحصد لنا مساوئ وعقد وآفات تعصف بنا.

صار الوهم يلاحقنا، ندفع فواتير باهظة الثمن، وأكثر ها رصيدا هووقتنا المهدور والعمر الذي يضيع في هدوء. أصبحنا نحصد الموت كما نحصد السنابل، صار للحياة مذاق آخر لا حلاوة فيه. نبكي الزمان الذي رحل ونبقى على حال قيد اكتسح عقولنا، صرنا مدمنين على الضياع كل يوم نتوه عبر العالم ولا نعود إلا ونحن ضائعين،نبكي حالنا في خمول.

لست أكتب إلا لرغبة مني في الحياة فحرفي المنطفئ بورقي قد ينبض وهويترجم لكل عابر خسارة عصره.

ليس يحزنني إلا الثمن الذي نسدده في عصر صرنا فيه فقراء.. لا نملك إلا أجسادا كهياكل تصارع البقاء، تقذفها الأمواج هنا وهناك ترمينا رغما عنا إلى حيث لا نرغب.

أصبحت البساطة هي الأجمل، هي الأرقى، بها نعود إلى خفايا الزمن الماضي في شوق للفحاته في اشتياق للأجداد نستعيد في الذكرى جوهرنا إلى حيث شعلة الحب كانت متقدة، إلى حيث

كان للأنثى فضاء في مملكة، حين كانت نصف الرجل لا كله.... نعود إلى حيث الصداقة غذاء للروح، إلى حيث العطاء الذي لا يكف منبعه، إلى حيث كان الأخ يشاطر أخاه ما يملك..حين كان للجار وقار، وللأهل تواصل، وللأحباب مقام.

إننا نبحث عن كل الذي ضاع ونحن تائهين في ضياع.

لست أملك غير قلمي ليس يحويني إلا صدق إحساس، وأمل يجرني إلى بصيص نور متدفق، هومنفذ النجاة الذي أصبح لا يرى إلا بالحكمة.

غريبة

غيبوبة إحساس

ليس التسليم بالحقيقة ما يجعلنا نتنفس بل الخيال أحيانا يلتمس فينا رغبة العيش فنكون على سبات عقولنا راضين.

هي الحياة التي تغدوواقعا مرا نرتشفه في فناجين أقدارنا حيث لا أحد يمكنه اختيار فنجانه فيكون زهريا أوأبيض أوأسود مختلفا في درجاته.

حين تشرق الشمس يكون يوما جديدا نأمل فيه خيرا أوفر، ورحمة أوسع نسطوعلى البساتين كي نسرق عطرا، نبدأ يومنا على ذلك الأريج الذي يوقظ فينا الحياة بنبضات قلوبنا المتزايدة الحركات والرنات.

إن هذا اليوم كان على خلاف الأيام ليس فيه عبق قهوة أمي، لا يحويه ذلك الدفء الممتد أمام قدميّ الممددتين.حين لاح الفجر بنوره صرت لا أسمع تسبيحها هواليوم الذي لم أسمع فيه دعاءها وقت الصباح كل شيء بدا كالحلم المفزع، إنه هدوء لا تحويه حركة.

لم أصدق، ومضيت في نومي فلا شك أنّ أمي هنا قد تكون في المطبخ تعد القهوة كعادتها.

في هذا الصباح أصبحت القهوة لا تحويها رائحة كأن العصر غيّر مذاقه، ورائحته فأصبحت القهوة من دون مذاق ومن دون رائحة.

أكملت نومي حتى دقت ساعة الجدار، أفزعتني وهي تدق بصوت مرتفع.

لقد أعلنت سبع دقات وأنا أحتضن وسادتي، أنتظر أن تنهي الساعة حركتها الأخيرة، لتعلن عن تمام السابعة. قمت بعدها كالعادة.

أعلم أنَّ النائمين لم يستيقظوا بعد. لم أدخل المطبخ ولم أرتشف قهوة الصباح، ربما لأني كنت مستعجلة أولأنَّ القهوة من دون رائحة, فلم تشدني إلى طاولة الإفطار المنثورة الفناجين. ما كان الصباح معطرا بالقهوة فقارورة عطري خدشت كل أصيل الرائحة. إنَّ النائمين لم يستيقظوا فخفت أن تصدر ملعقة السكر رناتها فتزعجهم.

لم أكن حذرة قبل اليوم، فإنه إحساس لم أتذوقه من قبل، وبدا غريبا في داخلي، لا هوصباح يعلن لي صفحة أخرى لم أفهم لون حبر مشاعري المرسوم عليها.

رحت على عجل وأنا أبحث عن الملف الذي رتبته ليي أمي لأني أكثر بناتها كسلا، حين أكون بين الورق يتشتت ذهني فلا أجيد ترتيبها، كأني في غابة لا أعي مخرجا ولا أجيد جمع الحطب فيها، فأكون ضائعة بين ورقة وأخرى كنت أذكر أنها رتبته معي ذلك اليوم الذي كنا فيه معا. تفقدته في عجل، فكل الملف مرتب كما ترتب ثنايا الملابس، كل شيء تتقنه أمي، حتى الورق فبدا أنيقا في كامل زينته.

كنت في كامل أناقتي رحت أرش العطر على كل جسدي، انتشر أريجه يحط بزوايا المنزل، تفقدت حقيبتي ككل يوم أخرج فيه , فتلك الإطلالة دون رغبة معينة هي إلزام على كل أنثى أوعلى نظري الذي تعلم تفقدها دون سبب.

لا أحد استيقظ..ليست هناك حركة كل البيت في غيبوبة.لم نعتد أن نكون على غير حركة أن نصبح نائمين صامتين لم

تكن الأيام قبلا بهذا الجفاف الصباحي. فأمي لا تحب النعاس المستفيض. إنها تحب نشاط الصباح، تحب أن تكون الأرزاق المنثورة صباحا من نصيب أبنائها فهي التي تقول أن الرزق ينزل كضوء الشمس فيسترسل في أول خيوط نورها، لم أستطع أن أطيل البقاء فكل شيء على غير عادته فهذا الصمت والسكون أدخل إلى قلبي رعبا.

خرجت من ذلك الباب، الذي غَيّرَ مزاجي، فهوكمخرج من وراء أسوار تسجن الرعب والخوف في داخلها...إني كدت أختنق لولا أني تخطيت العتبة.

لم أُلْق تحية الصباح على أمي، خرجت دون أن أقبلها، حدثت نفسي أن تبحث عنها هناك بالشرفة، حيث تجلس لترتشف قهوتها رفقة نسمات الصباح ونور الشمس في أول إطلالاته لتغذي روحها وتمتص طاقة جديدة ليوم جديد. فنفسي تمنَّعت عن إلقاء التحية، لم أفهم لما..؟، فقط وجدتها تسرع بالفرار من البيت، هي تسحبني إلى حيث ترغب في عجل....

مشيت بالشارع، لم أشعر بهذا الإحساس من قبل.إني سعيدة وحزينة في آن واحد أشعر بضيق الشوارع، رغم اتساعها، لا أسمع أحدا غير أنفاسي، يكاد قلبي أن يعلن عن نبضه كجرس خارجي...

خطواتي تنهال على الأرض ضربا دون سبب.....

أتفحص جسدي بنظرات ماسحة لكل هيئتي بكل اهتمام فأجده باسقا مفتخرا، خطواتي مستعجلة، ولكن لا أرى أحدا رغم الزحام الذي بالشارع إنها الثامنة كل المتورطين في قضايا الحياة، هم هنا عابرين للطريق، راجلين وراكبين في عجل من أمور دنياهم، في بداية يومهم.

مرت عجوز بقربي، فأشعلت ابتسامتها بوجهي.

أخيرا بادرت شفاهي بقول الصباح: !

- صباح الخير .

ردت وهي تمد يدها لتربت على كتفي :

-كيف حالك يا ابنتي...اقتربت مني أكثر وهي تبتسم وقالت أمك صديقتي، فكيف حالك، وكيف حال العائلة اليوم ؟

- قلت: بخير.

رحت أبتعد منها أخافتني ابتسامتها كخوفي من الحياة..

قلت لها في خطوتي الممتدة هناك..بخير..بخير، ابتعدت كأني أفر منها. فصباحها يرشق قلبي ألماً، رغم لباقة الصباح وصدق الابتسامة فلم أشعر الإرتياح.رحت لا أهتم بكل الذين يمرون بجواري، فقد حيرني أمر الملامح المبتسمة يرمون عليَ بابتسامات بها سر عجيب.

لم أعتد، أن أقطف كل هذا الكم من الابتسامات، ما بال هذا الصباح السخي، هم يدللونني على غير عادتهم.هل أبدوصغيرة حد الدلال هذا...؟

مشيت، وأنا أتفقد شعوري الغريب، الذي يزيد نبضات قلبي، وينقص من تنهداتي، لم أستطع ترجمة ما يسكن روحي، فقط هي هكذا كأنها زورق تاه في عرض البحر.

لم أحسن التجديف، حتى أعيده، فأنا لا أملك أشرعة كي أتحكم فيه وأقوده.دخلت إلى مدرسة الإعلام الآلي مشيت إلى الأمام، بالرواق الممتد إلى حدود مكتب به موظفة.

- جلست بترحيب منها.

أخرجتُ مجموعة الأوراق المرتبة بداخل ظرف.

ما إن أخرجتها حتى حامت من حولي رائحة أمي.....

إنه عطرها المعتاد، راحت أنفاسي تستنشق كمًا كبيرا من الهواء الذي تبعثر من حولي كي أجُرُّه إلى حيث أنا كي لا يضيع هنا في ممر قد يمتزج برائحة السجائر فيختلط..

كي لا يبعثر ذلك العطر الذي راج بالمكان، رحت أجمعه بفس واحد، كأني مشتاقة إليه، فقد خفت أن يرحل إلى أنفاس الآخرين هكذا أنانيتي في حبها، قد تكون رائحتها من أكثر الأمور وحشة، فلست أفهم هذا الاشتياق الذي عشش بكياني.

بعد أن أعطيتها الأوراق قامت بتفحصها فوجدتها على أناقتها، كل ورقة كانت حيث تلفت النظر، فلم تبحث كثيرا بينهم وراحت تضعهم بمجموعة الملفات التي على المكتب.

- قالت : انتظري مكالمة منا لتبدئي الدراسة،

سألتها :

- ألن يطول الأمر....؟ !

أجابتني وهي تسجل اسمي بالدفتر الذي أمامها :

لا أظن...

ثم أضافت : على حسب المسجلين عندما تملأ القائمة سوف يتم تعيين الأستاذ.

ثم أمرتني أن أوَقّع..فوقّعت بالدفتر وشكرتها ومضيت.

عدت إلى البيت. بدا مظلما حالك السواد لا احد يحوم غير

شقيقتي التي بدا جسدها كباقة حالت إلى الذبول.

- لم أتفحص الحزن المختبئ في ثنايا وجهها، ورحت أبتسم لعلها تغير شحوب ملامحها...إنها اللغة الأنسب لنتواصل بطاقة أفضل، كي نعبر عن يوم مشرق.

رفعت جفونها، كما ترفع ستائر المسرح، ليتضح الظلام والحزن من ورائها، فعيناها المحمرتان كالجمر الملتهب تلون تفاصيل وجهها كآبة تختبئ بعتمة زواياه شحوبا مرعبا.

قالت بصوت باح يكاد لا يسمع من تعب حباله الصوتية نتاج النواح لأيام :

- كيف أمورك...هل قمت بالتسجيل؟.

أجبتها وأنا أوهم نفسي أن الأمور بخير :

- الحمد لله اليوم وضعت الملف بالمؤسسة، فلولا أمي لما استطعت ترتيب الأوراق.

قيدني الصمت لوهلة، توسلت منها أن تقول كلمة ولكنها بقيت صامتة. !

تخفي ملامحها من وراء انشغالها،تحاول الهروب بدموعها التي توهمت أني لا أراها، إني أجاري إحساسي الذي راح يقتل في قلبي الألم، إنها الطعنة التي تجعل الجسم لا يتحسس الوجع كأن الروح استباحت نفسها وقدمت إحساسها ميتا في كفن كما فاجعة الموت..

ما عاد ينطق ولا يتنفس وبقي هيكل الجسم يضخ التعبير من دون أدنى رصد للإحساس.

-قلت : أين أمي لم أرها هذا الصياح ؟

-قالت : وهي تمد يديها لتعانقني :

ما حدث لك يا أختي، البارحة رحل العزاء من البيت، ألا تذكرين أيام الوداع ؟ فكل المودعين كانوا هنا !

راحوا يودعون أروحنا المحمولة إلى قبرها، وبقوا يحرسون هذه الأجساد رفقا بنا لسبعة أيام. ألست أنتِ من بكيت بحرقة أمام جثمانها !؟

لا أظنك نسيت لوعة الفراق.

كأني أصبت بصعقة كهربائية، حريق بكل الجسد، نيران تلتهم روحي ألسنتها لم تنطفئ، وماء الإخماد هوإحساس أمي... كلماتها... ذلك الدعاء المحمول إلى السماء.

لن ينطفئ هذا اللهب إذا ولن نعود حيث الطمأنينة....

إنه الفراق !

لم أتركها تضمني، وقلت لا أبدا لم يحصل هذا وكيف لها أن تتركنا وهي التي تحرس على لم شملنا.

شدتني بقوة.

أظن أن رحيلها أثر فيك فقد رحلت إلى حيث لن تعود. فكوني قوية حقا إنه الفراق الذي خدّر إحساسي.

علمت أن الذين تصدقوا اليوم بابتساماتهم لأجل أمي.

علمت أن لا وجود لقهوة أمي بعد اليوم.

ولن أشعر يدفئها بقرب قدماي.

لا دعاء يتصاعد عند الفجر.

سقطت أرضا أتحسس أنفاسي، ليتها تتوقف فكيف لها أن تستمر ومن يضخها صار تحت التراب.

لم أشعر إلا بطيفـــها أمامي، وهي تقول قفي وكوني كما تمنيتك شامخة، كنت أسمعها تناديني تنقذني تمد يديها لي، فتحت عيناي فإذا بطيفها يرحل وينجلي كالضباب المبعثر... وتتضح الرؤيا.استيقظت على صوت آذان الفجر، فرحت أدعوا من دعواتها التي زَرَعَتْها بالبيت لتزهر بقلوبنا مرتفعة باتجاه السماء.

*****

مفاتيح في غياب أقفال

يجر جسده بخطوات متثاقلة إلى البيت، بعد يوم متعب قضاه بواحات النخيل، إنها الحياة التي فرضت عليه، فرغم تعلمه وحصوله على شهادة جامعية، ظل حبيس المتاعب، ها هويتمتم كعادته، يهذي بحياة أفضل، فلا شيء يشفع له سنين قد قضاها في تحصيل العلم، على أمل أن يكون أكثر عطاء وأن يكون لعلمه نفع واستنفاع لقد خيم على مرآه الضباب. وأصبح المستقبل غير مكشوف !

رغم كل هذا، بقي يمجّد وطنه في غيرة تسكن ذاته معتزا بهويته، فهذا الوطن الذي طعن وغدر بخناجر أبنائه، بقي هوعلى خلافهم ظل يدافع عنه ويلملم جراحه، فقد اتهمه الكثير من أهل شريحته بأنه المهمل... وراحوا يتركونه راحلين إلى المهجر، يبحثون عن تراب جديد لن يحتضنهم بل سيتطاير على أرجلهم واخزا إياهم، وهم يعملون في حقول الفواكه لجمع دنانير لسد لقمة العيش.

أهدى سنتين لخدمة وطنه، فكانت أيامه شقاء متعبا، عاشها بأقصى الجنوب حيث حر الصيف اللاسع، وبرد الشتاء القارص فحب وطنه يهوّن عليه كل المشقة. شعر بفخر الوطن، فها هوذا ترابه المسقي بدماء الشهداء يناديه فيستجيب راغبا لقد أهداه سنتين من العمر الضائع.خرج بعد أن حصل على توقيع ورقة أخرى بل مفتاح آخر، به يصل لأحلامه ويفتح بابا أوصد، ولم يستدل لفتحه بعد. ولكن فور عودته علم أن فتاة أحلامه زفت إلى غيره.

آه... كيف لها أن ترحل من غير وداع وكيف للأحلام أن تتحقق من دونها.

فهي حاملة المفاتيح، في لحظة تبعثر كل شيء وما أصبح لأي توقيع أهمية، رمى بكل المفاتيح وراح ينازع لحظات موته، هل يعقل أن يكتمل العمر من دونها...؟.

رغب من العمر أن يتوقف لحظة، لكي يلتقط أنفاسه، كي يستعيد ترتيب القائمة التي غاب عنها الحلم الأول، فهوكمعادلة، لا تكون النتيجة إلا بتناسق وترابط الحلول المسبقة.

علم أن العمر كالقطار الذي لا يتوقف، يدهس كل من بدربه دون شفقة، يتركهم يتخبطون بجراح اليأس النازفة بكل أمنياتهم، فعليه أن يلملم كل أحلامه ويلوذ بالفرار إلى هناك.....فحضن أمه مازال ينتظره. فلم تغير مراحل الحياة شيئا منه، ولا يزال يفيض بحنان يغذيه، ليتغلب على يأسه.

يستلقي على سريره، بعد يوم من العمل المرهق بواحات النخيل، منذ الصباح الباكر بفصل الخريف المعلن لتشييع الأموات، تهب النسمات لتهوي بأوراق الشجر، فتنثره على الأرض....

لقد أعلن العام الماضي ذبوله، وها هويستسلم فاليوم يشيَّع ميتا على العلن، فتهوي عليه ضربات الأرجل الساحقة، التي لا ترحم تنثره هنا وهناك وتسحقه سحقا.... يضع يداه على عينيه يرغب في إطفاء النور الذي يملأ الغرفة من حوله بعد أن شعر باسترخاء كل أطرافه.بدأت حواسه في الغياب شيئا فشيء تستسلم لنعاس يخدر ذلك الجسد المتعب.ما هي إلا لمحة من الهدوء التي راحت بالنفس في انسياب حتى رن بآذانه صوت أمه تناديه....

- خالد..... خالد.. هل نمت يا ولدي.. ؟ غاصت الكلمات إلى روحه. صار يتوسل جسده أن يعود إلى الواقع الهارب منه، راح يطرد النعاس الذي نال من كل أطرافه إلا أذناه الصاغية، تترقب تمتمة الشفاه المتجرعة لجرعة التخدير....

إنه يتبع النعاس في اشتياق إلى حلم جميل من عالم السبات المريح أين تتحقق الأحلام.ففيه الراحة النفسية والجسدية هوملاذه الآمن كقصر حصين.

تمد الأم يدها لتهش بها على كتفه لعله يستجيب ويستفيق. فيجيبها بتمتمة لم تفهمها فذلك اللسان تحت التخدير يحاول أن يقول كلمة... يرفع يداه التي أطفأت النور من حوله ليشعله من جديد.

يفتح عيناه بعد أن كان يراوغها في حوار داخلي....آه.....بعد جهد وتعب هي استجابت.

لمح ورقة بيديها فاستفاق ذلك الجسد كأنه السحر، بنشاط حواسه المفرط.

بعد أن كاد يكون جثة هامدة، كلم نفسه كعادته الجنونية أهي ورقة استدعاء لمسابقة التوظيف بالجامعة... !؟

أم هي لمسابقة شركة التأمين.... !؟، أم هي لمسابقة التوظيف بإدارة المستشفى... !؟

أم هي لمسابقة مديرية التربية... !؟ ثم راح يتذكر...آه... لقد رُد ملفي من مديرية التربية لأن الملف يطلب ورقة تثبت خبرة سنة....

لم يتوقف فضوله، وبدأ يقلب أفكاره محتارا، خائفا أن يفتحها

بعد أن ألقت بها أمه على سريره وراحت لمشاغلها، فقد تعب من خيبات الأمل فما بقي إلا القليل حتى ترديه قتيلا.

ما إن مد يده حتى قالت له أمه :

لقد أحضرها موزع البريد هذا الصباح. لم تكن تنتظر منه أن يفسر لها ما تحمله الورقة، فهي تعلم الملفات التي تعاد من طرف موزع البريد وتلك الأوراق التي تصل في كل سنة.صار لديها خبرة منذ عشر سنوات وهي تستلم الأوراق من دون توقف كأنها تستلم رسائل عشاق في تعطش ووحشة، همَّ يقلب الورقة التي كانت مطوية وعليها ختم.

قال : كيف هذا؟....وهل أنا بحاجة لها تفاجأ من ذلك الختم الموضوع على منتصفها.....فسارع إلى فتحها فإذا بها استدعاء كأي ورقة إدارية كتب الاستدعاء من طرف» الوكالة المعتمدة لتمويل الأعضاء الاصطناعية للمعاقين « أعاد قراءتها أكثر من مرة يدقق بالاسم وفي نفسه رغبة أن يكون الاستدعاء وصل على العنوان الخطأ.

كيف هذا...؟

هل وصلت لمرحلة العجز ؟ !....أم أنهم يوزعون الأعضاء البديلة والكراسي المتحركة والعكاكيز المواسية لعجز مبكر، ليخمدوا ثورة العجز فينا كشباب ماتت فيه آماله.

إننا القوة التي حطمها العمر وأصبح يقتات من آمالنا لتتضاءل، فإن العكاز سوف يكون بديلا لرجل مبتورة...فليس كل ما بتر هوجسدي ! بل تبتر الرجل من ذلك الملل لخطى تزيد تعبا من دون خطوة يحددها هدف..فلا طريق يوصلك للهدف المنشود وكل الطرق إلى اللانهاية.

ها هم يقدمون لنا مفاتيح من دون أقفال..كل شهادة هي مفتاح لا تناله إلا بعد أن تـــــهدر سنينا وأنت تلهث في طلب العلم الذي صار كصهاريج مغلقة.

سيل العلم فيها يقدر نقدا..

حتى تكتشف إنها مفاتيح لا قفل لها لتقوم بفتح باب المستقبل فكل الأبواب موصدة.

راح يسأل نفسه هل يمنحونني عكازا ليكون سندا وعونًا لي في شيخوخة الشباب ؟ فسواد شعري لا يعني قوتي وعزيمتي فقد نخر عظمي منذ عشر سنوات..

كُتب الاستدعاء بتاريخ الغد ولم تكتب الساعة.....راح يسأله والده فور ما خرج من غرفته مساءا....هل وصلك الاستدعاء..؟

أجابه على الفور:

أجل ولكني محتار. لما استدعوني؟

هل يهمك أمره يا أبي...؟ هل صحتك بخير ؟

وضع الأب يده على كتف ابنه قائلا:

نعم إني بخير...فلا تقلق إنه استدعاء باسمك....

سكت قليلا في كحكحة ذكية.حتى يمسك طرف الخيط، كي يفصح لأبنه ما بجعبته..

إني منذ الشهر الماضي التقيت بصديق إثر تكريم لي بمديرية المجاهدين كان لقاءا بعد خمسين عام من الفراق، لقد كنا معا أيام الثورة. اخبرني أن ابنه يعمل مديرا «بوكالة لتمويل الأعضاء الاصطناعية للمعاقين» فطلبت منه أن يوظفك.

وها هويبعث لك استدعاء للحضور...فقد اتصل بي الأمس ليؤكد لي ذلك.... لا تنسى أن تذهب غدا صباحا.

لم يسعد خالد بما قاله والده...شعر أنه يختنق، كان خلال حديثه معه يشفط الهواء شفطا كي يعيد أنفاسه العالقة بصدره دون أن تخرج، ها هووالده يحمل همه وقد أصبح رجلا ذوقوة.لقد فسر هذا التصرف كفعل متسول يمد يده ليطلب رغيفا لأبنه يكاد يموت جوعا في زنزانة الزمن.إنها الوظيفة التي تذل وتحني من لم يذل، فكل هذا الشموخ الذي تميز أبوه به. جعله يتوسل لأبنه وظيفة وهومن حارب ليحظى الوطن براحة البال والأمن والاستقرار..هومن حارب بالنفس والنفيس ها هواليوم يتسول على ترابه المسقي بدماء أهله ورفقاء دربه كي يحصل ابنه على وظيفة فكل المفاتيح لا تكفي إذا كانت الأبواب من غير أقفال ها هي اليوم أصبحت تمنح لذوي الأيادي الأكثر امتدادا وإلحاحا أوأنها تباع بمزاد وعلى العلن هكذا بأموال طائلة تشترى... بعد أن كانت رصيدا لسنين راحت تنقب العلم تنقيبا....كان يظن أن اللسان لا يطلب وظيفة بل تلك الورقة التي علقت في الصالون هي التي تنطق... راح يذكر كيف كان والده يسأله سؤالا عفويا لكي يعلم رغباته وهوفي أول سنين دراسته:

- ما ترغب أن تكون بالمستقبل يا ولدي؟

فيجيب خالد :

طبيب. لأنه يعلم أن الطب هوالدرجة الأعلى وهي الوظيفة التي يتمناها كل أب لأبنه.فيقول في سريرته دعني أمنح أبي فرحة قبل موعدها....لم ينتبه إلى ما يرغب بل إلى رغبة أبيه فحصوله على شهادة التعليم الثانوي بذلك التقدير الجيد لأجل والده. لقد سعى جاهدا لتحقيق حلمه ولكن ضاع الحلم وسط هذا

الزحام الطلابي على شعبة الطب، فارتفع المعدل المرغوب به إلى أعلى درجة، فاختفى الحلم كما تختفي الشمس من وراء غيمة ملبدة تغيّر ظله فتمحوا معالمه وتجعله هيكلا من دون ظل.هكذا تغير المستقبل في واقع مفروض عليه قاتلا لآماله.

كم هي أحلام أبيه تفوق أحلامه، فأولها أن يراه رجلاً يُعَول عليه يعيش من رزقه، كما أنه يتمنى أن يرى أحفاده ككل أب يرغب في تمجيد اسم العائلة، ليوقع بالحياة توقيعا أبديا قبل موته. شعر خالد بالحزن واشتعلت لمعة بعينيه ترصد بريقا.... أهوالدمع ؟أم هوستار الحزن الذي يعكس همه ؟

في الصباح الباكر ترك كل عواصف الخريف من ورائه، ترك كل واحات النخيل الشامخ، ترك نفسه التي كانت بالأمس ضعيفة وشامخة. ذهب ليتسول رزقا تاركا كل المفاتيح، راميا كل أحلامه التي كانت قبل اليوم هي الحياة...فيكفي أن يحقق أمنيات أبيه قبل أن تضيع هي أيضا.

في طريقه تفحص الهوية، أهي بجيبه...؟فلا يمكنك أن تثبت وجودك من دون هوية. فهي الشيء الوحيد الذي يوثق أنك من وطنك، هي كل حقوقك، فمن امتلك ورقة خضراء بختم أحمر سكن تراب الوطن متجولا كأنه العدم الغير منعدم.

كان مقر الوكالة بعيدا، ولكنه رغب بالسير على قدميه كل المسافة فالحوار مع النفس طويل ومشحون....حوار لن تنهيه كل المسافات.

قال....فربما هذه المسافة الأخيرة التي تسجل حواري على أرصفة المدينة اليوم سأوقع آخر خطوات البطالة.

هوكعادته يتمتم بجنون غير مجنون....ها هي البناية بهيكلها

الضخم الذي يوحي بإدارة ضخمة بواجهة زجاجية كأنها المرايا العاكسة لنور الشمس كلون الذهب الخالص. يتقدم بالقرب من بابها وهويلف نظره في إطلالة لذاته يلف نظره حول هندامه يعدل قميصه ينحني ليخفي خيط حذائه الذي تدلى يجر التراب جرا،ها هويدخل يده بجيبه ليتفقد هاتفه قبل دخوله لا أحد اتصل...!

لا أحد يتصل ليقول لي عُد فالقفل وُجد ومفتَاحك قد هم بفتح باب المستقبل....لا أحد ليُنقذني من هذا التسول...؟

عدل شعره كأن أصابعه مشطا مستعينا بذلك الباب الزجاجي كمرآة عامة.

سحب الباب ودخل، فإذا برجلين من ورائه كأنهما شرطيان بملابس خاصة تعلن هيبتهما كانا ينظران بالباب كأنهما في انتظاره...

ألقى خالد السلام وقال:

لقد وصلني استدعاء من وكالتكم وراح يمد يده إلى جيب سترته الداخلي ليخرج الهوية والاستدعاء معا، أعطاهما لأحدهما، ولاح بنظره إلى تلك اللافتة الموضوعة على مكتبهما الزجاجي الضخم وقد كتب عليها بلون فضي لامع «الاستقبال». بقي ينتظر جوابا منهما ولكن رجل الاستقبال طال تحديقه بالهوية، كأنه يتأكد من ملامحه في تدقيق مستمر. قال خالد في نفسه...كم هذا الموقف محرجا لا شيء يشبهني بالهوية حتى صورتي أصبحت غريبة فكل ملامحي أخفاها التصحر عبر السنين. تشققت كل وسامتي من ظمأ ينتظر عطاء مطر ليكشف عليها فلولا الاسم المكتوب لما كنت أنا، حتى الهوية تكاد أن تنكرني.

أعاد له الهوية والاستدعاء وهويحدق به بابتسامة تبين أنه راضي عنه وقال له : تفضل معي.

وهويشير بيده باتجاه الدرج. صعد برفقته.قاده إلى رواق على يساره تمتم خالد كعادته:

- آه... الحمد لله هناك ما يشير في الصورة لملامحي.

سار خالد بثقة بتلك الممرات المتشعبة لا يعلم إلى أين يقوده.

كل الممرات تتشابه وتتشابك كأنها أنفاق لم يطل نور الشمس عليها منذ سنين. كلما مشى شعر باختناق، حتى أصبح يتنفس من خرم صغير يكاد يختنق ويطبق على أنفاسه لا هواء طبيعي ينعشه، يلوح بنظره إلى عبوات الأكسجين، المعلقة بالأروقة.

ويقول في تمتمة : ليته يساعدني بواحدة لعلي أنتعش....

هنا لاشيء يوحي بالراحة....تسمع أصوات النعال التي تشبه أصوات طبول الموت.

تسمع أصوات الورق المعلن لصراخه من فوهات الطابعة تشم رائحته العفنة الرائجة بالمكان.

العاملون بالممر أكثر من الذين بالمكاتب، يتحركون ذهابا وإيابا حاملين أوراقا تتطاير بين أيديهم.

إزعاج لا تتحمله النفوس الهادئة، بل لا تتحمله نفوس جبلت على شاكلتها الأولى وإنسانيتها الطبيعية.....

يرمي بنظره إلى كل مكتب يمر بمحاذاته فيراها كخنادق بنوافذ وأبواب. فتح الباب موظف الاستقبال واستدار يخاطبه قائلا:

تفضل بالدخول

دخل خالد بعد أن انصرف موظف الاستقبال.

كان بالغرفة موظفة جالسة من وراء المكتب تكاد تبدولوحة زيتية اكتملت للتو...

فتلك الحمرة الفاقعة على شفتيها توحي أن الريشة لونتها تلوينا إضافيا قد تسيل مبقعة الورق الذي أمامها....

لم يكن الأزرق اللامع الذي على جفنيها يوحي بالراحة كالسماء والنجوم. بل أوحى عن تلبد كئيب. فراح يقتل جمال العيون ويخفي بريقها.

فذبلت من ثقلها. ربما هي الأناقة العصرية التي تعلن خربشة لرسام تشكيلي راح يمازج كل الألوان في عفوية تخدش جمالها فيعلقها على جداريه بيضاء لتضيء كما علقت وراء مكتبها لتتلقى الأنظار.....

تلوي لسانها يمينا يسارا. تصدر صوت العلك المقزز.

رفعت رأسها وقالت.... اجلس دقيقة.

جلس خالد ينتظر اللاشيء...وهل هويعلم عن حاله شيء ؟! هوهنا ولا يعلم الخطوة التالية ما هي.....؟.

ثواني حتى رن الهاتف.

فأجابت: نعم سيدي إنه هنا.

كان خالد يدقق في تلك اللافتة التي كتب عليها أمانة المدير يهز الورق الذي بجوارها، ويهز رجله توترا وقلقا...إنه يختنق من رائحة اختلاط العطور والمنظفات الذي عكر جوالغرفة.

يتمتم كعادته.. تعبت...متى أخرج...؟

قالت الموظفة : ماذا قلت؟

- لاشيء.

قالت : تفضل المدير في انتظارك.

فتح الباب بطريقة آلية معلنا له بالدخول.

راح كل ذلك التوتر كأنه صعق. فماتت كل الأحاسيس..فلا هوخوف ولا هوحزن ولا هوفرح، تراه ما الذي اختلط وجعل الروح لا تشعر بالذي يحويها من إحساس.....دخل فألقى السلام... كم هي الغرفة شاسعة.؟....كم هذا المكتب فخم....؟ لم يجلس المدير وراء مكتبه بل كان يجلس على الأريكة المجاورة،

هوشاب يبدوفي مقتبل العمر. يحمل بيده سيجارة زادت من امتصاص الأكسجين المفقود. فأناقة المكان خاوية كأنها أناقة جسد من غير روح

رد السلام وراح يهز سيجارته إلى الأريكة التي أمامه قائلا :

- تفضل مرحبا بك.

استعاد خالد أنفاسه التي غابت مرتبكة هاربة من قبضته بعد أن حاول ترويضها على طريقة جديدة في استقبال جديد ولائق

تطاير الدخان من حولهما راقصا يربط أنظار كلاهما.

قال المدير وهويبتسم : كيف حال عمي إبراهيم....؟.

- بخير يسلم عليك....هي الكلمة التي من المفروض أن يقولها فمن اللباقة حين يسأل عن شخص مقرب عليك أن تقولها لتزيد في إثرائه وإن لم تحمل منه سلاما.فقد يكون السلام هي اللغة التي كلماتها حية وإن ماتت في بعض الأفعال....

راح يكلم نفسه في عمق ذاته

أيعقل أن يكون المدير أقل مني سنا ؟...

أليست القوانين تفرض قانون ثلاثين عاما من الخبرة المهنية كي تكون مديرا..؟

أيعقل أنه يملك مفتاحا سحريا ليس كالمفتاح الذي فزت به، فعلقته أمي على جدار الصالون كرمز يفتخر به.

كم راح من عمري... ! كم ضاع من حياتي.... ؟!

ما أشقاني في هذا الواقع، لم أحصل على وظيفة بها أشعر بوجودي فقط...وكيف أكون مديرا ؟ هوشيء من سحر الساحر.

كان يحدق بالمدير ويتحسر على عمره الذي جره الزمن في الدراسة وجمع الشهادات.

وفي لحظة قتل المدير كل الخلوة الداخلية، وهويخاطبه :

أريد منك أن تأتي بملفك غدا لكي أعينك بالوكالة.ثم أضاف.. علمت أنك درست الإدارة، والتسيير، سوف أوكل لك التسيير بقسم من أقسام الإدارة.

سكت خالد لبرهة ثم قال : أشكرك أتمنى أن أكون على قدر هذه المسؤولية. وراح يسأله :

- وما هي أوراق الملف أستاذ.

المدير: سوف تجد الورقة بالأمانة .

ثم أضاف قائلا : والدك كان بطلا أيام الحرب فأبي يفتخر به، فكل معركة كان هوبطلها وقائدها الشجاع.

ذكريات والدي كلها تروي بطولاته.

ثم أضاف تشرفت بك. وهويغير نظره إلى هاتفه منشغلا به، كأنه يبحث عن رقم ما.....فهمَّ خالد بالخروج.إن وقت لقائه انتهى وعليه المغادرة

بعد وقوفه قال له : ولنا الشرف أيضا.

كانت كلمات المدير كالثلج على قلبه، شعر أنه يطير في فضاء الكرامة والعزة.

بادر بالرحيل وهويقول غدا سوف آتي بالملف.

خرج ليجد الموظفة في انتظاره بابتسامة عريضة، لم يرى في حمرتها الراسمة لحدود مبسمها، إلا لون دماء الشهداء على حدود وطنه ، لقد كان هناك يتذكر بطولات ولده

أخذ الورقة التي قدمتها له مرشوشة ببشاشة وجهها، رجع للبيت وما أسعده.

يكاد أن يرقص ليداعب هذه الأرض، التي تدب خطوات سعيه على بساطها، لقد حصل على وظيفة، ولكن المفتاح هوبطولات والده، هي شهادة مقاوم...

هو ذلك الوسام الذي يلمَع، ليحفظ في علبته الحمراء، كعلبة الألماس، لا يحضر والده اجتماع المجاهدين من دونه.بل يغيب هوويومض الوسام بكلمات التحرر الأبدية...هوذلك العلم المخبّأ منذ سنين يحتفظ بلون الدم ورائحته المعطرة مسكا، يحمل نزف دم والده حين أصيب برصاص المستعمر، فكان لجراحه حياة خالدة لتبقى موثقة في التاريخ.

فخورا به وهوبطله في كل قصة. تعلم منها الشجاعة والإقدام، قال في نفسه إن لي في هذه الوظيفة حق، ألا يقال ذلك الشّبل من ذاك الأسد

فأبي بطل وأنا منه بطل.

فأبي القائد. لم أتسول وظيفة، فمن دون أبي لم يكن الحاكم بكرسيّه اليوم، فكل الوطن يدين له ولأمثاله بشيء من الكرامة. فالمجاهدين والشهداء، هم أصحاب هذه الأرض الطيبة...وهذا التراب شرب من دمائهم حتى ارتوى فكل شبر به هومقدس.

- اعتقد خالد أن كل شيء سيقدم له على طبق من ذهب، فكانت تكفيه تلك الكلمات، من ذلك المدير الشاب التي عطرت أجواء كيانه ففاح شذاها بكل أرجاء البيت.

راح يبحث بين أوراقه على أوراق الملف المطلوبة. فها هوذا الملف كاملا فكل الأوراق موجودة ومضاعفة.

منذ عشر سنوات شغله الشاغل بين الواحات والبلديات....لا شيء غيره إنها صورته، التي بين يديه، راح يحدق بهاويتمتم :

لما لا تشبهني ؟ لعلّي أعيد صورة أخرى ؟...آه.... فأنا لا أحب الصور كأني لا أحب نسخة ثانية مني..إني أخاف عليها تشرد السنين.

يجمع كومة الورق، بعد أن أخذ منها ما هوبحاجة له، لم ينس المفاتيح فشهادته الجامعية، وورقة تأديته للخدمة الوطنية، وشهادته بالإعلام الآلي، هي مفاتيح وجدت أقفالها، فها هي اليوم ستفتح أبواب الرزق.....

القمر أطل على غرفته، أصبح بدرا يشع نورا.....بعد أن كانت كعتمة حالكة لا نور فيها، يخفي كل شعلة نور كاذبة بيديه. فيطفئها، وها هواليوم، يلقي نظرة على بدر مكتمل كاكتمال فرحته.

نام على فرحة الغد، نام وقال للأحلام، لا تطلي فحلمي سيطل بالحقيقة.

حصل على الوظيفة التي لطالما حلم بها، ها هويجلس من وراء مكتب، لا يقل فخامة عن ذلك المكتب، الذي رآه يوم تخرجه بأحلام اليقظة.

المدير راض عنه. فخور به لأنه موظف منضبط دؤوب، ونشط تغيرت حياته إلى الأحسن، زادت ثقته بنفسه وزادت تطلعاته راح يعيد النظر في كل ذلك الكم من أحلامه وأحلام والده، كي يسعى لتحقيقها هويرتبها ترتيبا على حسب الحاجة.

بدأت حياته تأخذ مذاقا آخر، فعمله المتواصل، علّمه أن للحرية قيد وأن القيد ليس بالضرورة، أن يكون سجنا. بل يمكن أن يكون من نتاج أفعاله...ومن ساعات يومه، التي تجره إلى آخر الدوام، مضبوطة بعقارب الساعة....فتلك المفاتيح التي فتحت أقفال باب الحرية، أدخلته صرحا لم يحرر بعد، وليس إلا بوتقة آزرتها أسوار عالية.

رغم القيد وعبودية الوظيفة، إلا أنه راح يبحر بالعمل ويركب أمواجه العالية، ببراعة راح يلفح فكره بحروف وأرقام.

ها هوذلك الجسد، الذي نالت منه حرارة الشمس منذ سنين، يظهر براعة رجل أعمال مقتدر، ولكن رغم ذلك لم يفارق واحات النخيل، وظل يمضي يوم عطلته مع أصدقاءه في سقي النخيل والعناية به....بقي ينعش أنفاسه بحرية الطبيعة، وبنسماتها التي تهب بين جذوع النخيل المصطف من دون فوضى،

فأغلى أوقاته وأجملها يوم عطلته، وهويلامس النخيل الشاهق. يحاكيه أحيانا، ويستظل تحته أحيانا أخرى، يغني له أغنية من

الموال الشعبي...لأنه على علم أنه يعيش لأجيال، وهوالذي شرب من مواويل الأجداد فطرب بها وتربى على سماعها، حتى أصبح باسقا، كان لا ينهي لحن مواويله حتى يستشعر السلام في أحضانه، وهوتحت تاج النخلة العاكس لظلالها في ساعة الظهيرة من شمس حارقة.

فينام في قيلولة لا يستفيق إلا على صوت خرخشه من سعفها كأن النخلة توقظه....فهويفهمها أكثر ممن حوله من البشر الذين أصبحوا غامضين ومختفين وراء مظاهر كاذبة، إنه التقدم الذي عصف بمجتمعه إلى طريق لا تعرف نهايته.

لم يكن يرى في هذا الانقلاب الحاصل رأي صائب....فهذه الروح التي ألغوا كل معالمها، وجعلوا منها جثة خاوية وراحوا يجوفونها من كل مبادئها، لتفوح رائحتها النتنة في عصر اكتشاف أرقى العطور.

وأصبح الماضي تلك الخرافات التي تمجد: قصص الحب، والصداقة قصص الأخوة في عصر دينصوري منقرض.

لم يعش خالد بشاعة الاستعمار، ولم يحظى بحياة بين الثوار.... لم يكن هناك يحمل وسام الجهاد ولا طهارة الشهداء....ولكنه كان بطلا منفردا بأفكاره عن بني جيله، يستمد قوته من أبيه البطل وإيمانه من حنان أمه التي لم تحظى بابن غيره، فعانقته حتى أصبح شابا وسقته من حنانها حتى ارتوى طيبة.

إنه اليوم، موظف وعمله يصقل شخصه في الناس مهابة...وحبه لهم كسواقي عذبة يرتوي منها كل ظمآن، فهوخادم لكل من احتاجه من فئات المجتمع، والتي عطبت من جراء الحرب وكذا حوادث المرور وكل إعاقة جسدية.

لا يكف أن يوضح لهم الطريقة لجمع الملف كي يحصلوا على هذه الخدمة ساعيا لمساعدتهم إلى أقصى الحدود.

يبرمج كل وقته لخدمتهم...يساندهم ليقهر الضعف الذي انتابهم،

يلملم جراحهم، ويأخذ بأيدهم كي يوصلهم لحياة بها أمل.

إنها الحياة التي لا يختزل متعتها أحد، كيف ما كان حاله، فذلك العجز الجسدي ! يضل أفضل عند خالد من ذلك العجز الخلقي المجرد من المبادئ الإنسانية، العاصف بـأرواح الناس إلى مستنـــــقعات الهلاك الحتمي....

فهوالذي يهتف أن الحياة حق شرعي وهبه الله لكل روح على وجه الأرض، فالاعتناء بكل ما هوحي من الواجب الذي يعبر عن الإنسانية

لقد تذوق العجز طيلة عشر سنوات وتذوق النجاح قبله وها هواليوم يتغلغل إلى أرواح الناس كي يعيش إحساسهم. ويمد لهم يد المساعدة التي لطالما تمناها أن تمتد له في أول سنين تخرجه حيث كان حلمه الأول في الخانة الأولى من ورقته المسجلة في ذاكرته..ولطالما انتظر يدا بين كل هذه الأيادي.

عبثا تمنى في ذلك الحين، وها هواليوم يمد يده لكل محتاج ولكل عاجز الجسد قوي النفس.....أصبح خدوما يركض طيلة اليوم لإرضاء كل مريض وكل ضعيف وكل محتاج.

اليوم وبعد ثلاثة أشهر امتص حب الموظفين راح يدغدغ أفئدة كل العاملين بالوكالة بعمله المتفاني وتواضعه وطيبته.

ذاع صيته بتلك الرحمة التي تلف روحه...

أعطاه الله روحا تهب لها كل الطباع وكتلة إدراكية شاملة تدرك إحساس كل فرد.

ككل يوم يدخل الوكالة يقدم سلاما أحلى من مذاق القهوة فحين يدخل توضع القهوة على جنب ليكون سلامه هوالقهوة وهوالحلوى...يكلمهم عن حالهم يسأل عن أحوال أهلهم، يروح في جلسة لدقائق يمازج فيها كل الشخصيات ليصنع لوحة متجانسة بأجمل الألوان بأذهانهم..ثم يقول لاحقا نلتقي ويمد خطواته لتهبَّ أرواحهم في تتبع تلك الخطوات إلى أن يختفي عن الأنظار.

إنه الذي ينحني بكلماته لهم تواضعا ويرفعهم علوا فتغمرهم حيوية تنشط أرواحهم وتبث فيهم طاقة إيجابية.لقد قهر مفعول القهوة وآليتها عن التنشيط.

يصعد الدرج بخطى ثابتة يهز جسده إلى الأمام رافعا رأسه، يوزع الابتسامات مع باقة من التحية يحمل محفظته بيده ليسرى واليد الأخرى لتوقيع السلام.

إنه اليوم الذي أوكلت له مهام الوكالة لأن المدير ذهب في عمل إلى الجزائر العاصمة.

جلس خالد بمكتبه لدقائق يتصفح كم الأوراق التي أمامه فوجد بينهم قائمة للمعدَّات التي دخلت بالأمس إلى المخزن..هي أوراق لا تخصه بل كانت من مهام المدير، لا يقوم بها غيره حرصا على إيصال المعدّات بالكمية المطلوبة.

قام بتفحصها جيدا...إن الكم هائل.... !

وكيف لا يكفي كل المحتاجين..؟

وكيف لتلك المرأة أن تحمل ابنها العاجز عن الحراك وهي تعبر الطريق تضمه إلى حضنها، تجري لتصل الحافلة قبل أن ترحل دونها.لا أحد يعلم قدر التعب الذي تعانيه.

أظنه في سن الخامسة لا يحسن حتى الكلام من عزلة قضاها في سريره، يحمر وجهه خجلا لأن عيون الناس تلاحقه فيسارع بإخفاء كل ملامحه تحت خمار أمه المتدلي على صدرها، فلا يترك غير ذلك الجسد الذي يعلن سكونه وسكوته الدائم.

هويذكر جيدا ملامحها منذ العام الماضي كيف التقى بها وابنها الغير قادر على المشي ولا حتى التعبير فشعر بأنه عاجز في حينها على المساعدة وظل ينتظرها لعلها تطل بزيارة، ولوخاطفة على هذه الوكالة

تجوب أنظاره كل أرصفة المدينة وهوعائد من العمل لعله يلمحها ولكن لا وجود لها.

فهل قررت أن تكف نشاط يومها المعتاد..؟كي تعلم ابنها أنها صورة منه لتزرع فيه الأمل

أم أعلنت الاستسلام...؟ فتوقفت عن ملاحقة شعارات حقوق الطفل وحقوق الحياة فقررت أن تكون كطفلها من دون حراك.....

.كل يوم كان في انتظارها ليخبرها أنه أصبح بإمكانه المساعدة وأن كرسي ابنها وصل وهوهنا ينتظره

أدمعت عيناه وهويتذكرها ويقلب الورق في وقت واحد.....

أليس من حق هذا الابن أن يدرس ويلعب، أن يحاور الأطفال أن يرمي كرة....؟

قال في نفسه لماذا لم تأت اليوم أيتها المرأة المكافحة...؟ يا من

وهبت جسدك لابنك فكان له الكرسي والسرير.يا من أعطيته كل زاوية مريحة فيك يا من اقتسمت معه كل أمنيات روحك ووهبته كلك.. ثم راح ينسج خيوط التفاؤل.

لعله أصبح يمشي..؟ وإلا لما غابت أمه عن كفاحها. لعلها منشغلة بخطواته الأولى.

دخلت (سكرتيرة) المدير فأبعد يداه عن الورق محدقا بها لينتظر ما ستقول.....

قالت له : صباح الخير أستاذ.

جئت لأخبرك أن الاجتماع على الساعة العاشرة. أذكّرك فقط

-أجل سوف أكون بالقاعة إثر وصول كل الموظفين، وأضاف قائلا من أحظر هذه الأوراق..؟

قالت: رئيس وكالة المحاسبة.

بقيت واقفة تنتظر أن يخبرها شيئا بعد هذا السؤال الغريب ولكنه لاذ بالسكوت للحظات ثم قال :

- حين يحضر الموظفين أخبريني .

وراح يقلب الورق مرة أخرى. وهي همت بالخروج متعجبة من هدوئه وشحوبه معا، متعجبة من لمعة عيونه المحمّرة ورعشة يداه المعلنة لفكر منفصل عن الجسد فغاب التواصل بينهما وراحت يداه تحتار في حركة من دون مقدمات سابقة.....

أخذ الورق الذي إهتز من قبضته العنيفة والخاطفة..راح يخرج من مكتبه يغلق الباب بصرعه، أسرع بخطى جديدة لم يعرفها من قبل نزل الدرج وجد موظفي الاستقبال وبعض الزوار.

فقال : هل السيد أحمد موجود بالمخزن.....؟

تكلم أحدهم : نعم هو هنا منذ الصباح

حامت على وجوه الموظفين الدهشة.

لم يكن يسمع سلاما ألقي عليه.. ولم يرى ملامحهم الحائرة

فقط هوهناك بين الورق الذي يتخبط في يده واشتدت قبضته عليه

سار باتجاه الـرواق الممتد أمامه وأخيرا هوبمدخل مخزن الأجهزة.

فتح الباب من دون إذن..بل لم يهتم إلا للورق المقيّد في يده.

ما إن دخل حتى وجد موظف المخزن جالسا خلف مكتبه يداعب الهاتف.

حرس على السلام وقال له :

- هل تتكرم لتفتح باب المخزن ؟

حدق به في خوف وحيرة لم يسعه حتى أن يرد السلام كاملا. واكتفى بكلمات عاجلة تعبر عن سلام غير متوقع. إنه طلب على غير العادة.فلولا تلك الورقة التي وصلته مساء أمس والتي كتب عليها أن خالد يستخلف المدير. لما كان يستطيع فتح المخزن

هوالأمين على هذا العتاد فكان عليه التقيد بأوامر مسئوله

إنه موظف لا تتعدى مهامه حفظ العتاد وتسجيل ما يؤخذ من الطلبات

أخذ كومة المفاتيح التي غاب وسطها المفتاح المطلوب في خوف سابق لأوانـه...راح يبحث عن مفتاح يفتح الباب وكأنه

لأول مرة يقوم بذلك

بعد كل المحاولات.....لم يخذله المفتاح الذي اختفى رعبا بين حشد المفاتيح الحاملة لأمانة وأسرار المخزن.

أخيرا فتح الباب واستنشقت أنفاسه رائحة الدواء الذي فاح من معدات لم تزر المستشفى بعد.

راح خالد يحلق بنظره على تلك الكراسي المتحركة التي فاق عددها كل الأجهزة الأخرى.

- قال بنبرة غضب: أريد جردا لكل عتاد المخزن...لديك ساعتين من الزمن أريد الأوراق بالمكتب.كان كلامه أمرا.

إن الورق بيده يصرخ، أحكم قبضته....يطلب الحرية ليفر ولكن دون جدوى

عاد خالد لمكتبه آخذا ذلك الورق الذي بيده محررا إياه بساحة محفظته الحافظة لكل ورق مهم محجوب عن أنظار الموظفين.

جلس إلى كرسيه يتفحص ساعته....إنها التاسعة..لم يحن وقت الاجتماع بعد..راح يوقع بعض الأوراق الموضوعة على مكتبه التي تتطلب توقيعه..

ما هي إلا نصف ساعة حتى حضر أمين المخزن ليضع ورقا آخر على مكتبه

سُرَّ خالد وشكره لنشاطه وعمله الذي قام به في فترة وجيزة... ثم قال هل قمت بجرد دقيق ؟

- نعم أكيد كل شيء مسجل على الورق

خرج أمين المخزن وراح خالد يبحر بين الأوراق يدقق فيها

ويقارن بينه وبين ورق المحفظة.... صار عابسا ينهال على المكتب ضربا، يهز قبضته ثم يوقعها في قلق شديد.

يتمتم على غير عادته أيعقل أن تموت الضمائر....؟إلى هذا الحد !... آه من غبائي... لما يبترون الرجل الأخرى ؟ألا تكفيهم واحدة...؟

راح يشد على الورق حتى كاد يمزقه. اللعنة كنت أشارك في جرائم.....إني والمستعمر إخوة..بل أبشع.

لهذا استسلمت تلك المرأة وغادرت البحث عن حركة ابنها لهذا توقفت عن الخروج، بل أوقفت نبض الحياة وصارت في سكونها راضية...

راح يضع يداه على وجهه مسندا مرفقيه على المكتب.

الأوراق المقيدة فرت متناثر ة على سطح المكتب تعلن حرية أبدية من قيدها الذي كان منذ قليل.

خالد يعيد شريط حياته يوم تخرجه ويوم توظيفه يوم كلمه والده عن البطولات وعن القوة عن الشرف والشهامة.

يستنشق من قوة الخير التي سكنت في داخله....وراح يتقيأ الشر الذي تجمع من هواء هذه الغرفة

يسمع ضجيجا بل صوت كعب كأنه الطبول الأولى التي سمعها.

ها هوالموت يخيم على كل الأجواء كأنه لا يرى إلا مذابح وسيل دماء، لا أحد غير القتلة هنا....يكملون مجازر المستعمر يعطبون ما تبقى من البشر، لا يعنيهم إلا الربح فأعناق الناس سلما للوصول إلى تلك القمم الزائفة .

- تنظر (السكرتيرة) إلى ذلك المكتب المبعثر لأوراقه وإلى خالد

الذي لم يرفع رأسه بعد....

قالت بصوت خافت « خوفا من ردة فعل عاصفة « :

- أستاذ: وقت الاجتماع....فالساعة العاشرة والموظفون بالقاعة..

خالد يعلن قتل كل حواسه.... هنا وبهذا المكتب.

الهاتف يرن ولا أهمية له....الأوراق تلامس حذاءه مرمية بالأرض ولا يهم،

فقط هوهناك يبكي حال هذا الواقع وحال هذا الزمن الذي أعلنوا فيه أن المستعمر غاصب وجرائمه لا ترحم...أعلنوا أن الحرية راية رفرفت عاليا.

كاذبون هم ....؟ !

المستعمر من قتل أخيه مرأى منه وعلى ضوء نور الحرية، من غدر بأخيه، من أحياه عبدا وأوهمه الحرية...من علمه أن الحرية راية ترفرف في السماء كأجنحة لا تلامس الأرض.

كاذبون حين أعلنوا الحرية وهم المستعمرون، وهم قاتلون بصمت من دون بنادق ومن دون خناجر يمارسون قتلا شرسًا يحفرون خنادق اليأس ويسحقون الأمـل يخنقون الأرواح المستنجدة للحياة هم بذلك الطمع المخيم بظلام أرواحهم

كالذباب حط ليقتات من نقد وسخ.

وقفت (السكرتيرة) تنتظر ردا، أما هوفقد ألقى صمته، إنه السكون الذي يحوم كأنه عاصفة هوجاء قلبت كل المكتب رأسا على عقب حتى خالد روحه بعثرت.

هز جسده عن ذلك الكرسي الذي أصبح غير مريح.

هب كما تهب الرياح تاركا جوا معطرا بكل أرجاء المكتب، مازالت الموظفة تقف لم تبرح مكانها في سكون ثابت لم يحرك لها طرف.

راح يرمي بكلماته الأخيرة لعلها تجمع منها شتات كلمات لتكون جملا لها معنى.

- قال : لا اجتماع.....ولن أشارك به، هم أهله ولست أنا.

مشى بخطوات أكثر ثبات كأنه البرق ينزل الدرج،. لم يسمع من أمامه ومن خلفه إلا صوت الحرية، إلا صوت الشهداء، صوت المجاهدين الجالسين على كراسي الإعاقة لم ير إلا البتر في تلك المعارك البطولية،

سارع في الخروج كأنه الغريق، في بركة ملوثه أراد الصعود إلى سطحها بكل قوة لديه فارا من ماء قذر، ومن تنفس خانق، خرج ليشهق شهقة واحدة بها أعاد إحياء رئتيه التي تصلبت، فالروح لاذت بالفرار عنه تاركة جسده يتدحرج بالدرج.

كل شيء فيه أصبح قذر لا تغسله المياه...بعد عشر سنوات من الأمل يعلن هنا وبهذه الوظيفة العفنة أنه لا أمل.....مفاتيح أخذت نصف العمر....لا تفتح إلا أبواب جهنم الحارقة.

سار بشوارع المدينة يهيم ويتمتم :

آه..... آه من غباء ما اكتمل، فالأغبياء هم المطلوبين.

عاد إلى البيت بعد أن دار بشوارع المدينة.

بعد أن جلس بمقهى الحي لساعات.

بعد أن نامت الشمس، دخل البيت خائفا مرعوبا من تلك الشهادة للبطل المقاوم المعلقة بالقرب من شهادته الجامعية.....

راح يحدق بهما وقد ألقى ستارا على دمعه.لعله يختفي ولا يفضحه....

نام على أريكة الصالون حتى أطل نور الصباح.زاحفا بانسياب ليصل إلى جسده فيلفحه بنعومة دفئه.

إنه الضجيج الذي يدغدغ أذناه....

استيقظ...كأنه لم ينم فكل جسده يطلب راحة أبدية.

كم كان ذلك النور مشرقا، يعكس لمعة خلابة من وراء بلور النافذة يمتزج مع لون الستائر الزهري ليغير كل المحيط..... شعر بالارتياح من جمال لون تغلغلت لمعته إلى روحه ليغير صفحة البارحة ويفتح صفحة بيضاء تخط يوما أجمل.

ينظر إلى ساعته إنها السادسة.. حمل حاله ليتوضأ ويصلي صلاة بها خشوع على غير العادة يمد يداه إلى ربه يطلب الرحمة

والعفوويدعوا من الله المغفرة.

راح يمد يده إلى الدُرج بالقرب من سريره الذي لم يعانقه ليلة البارحة أخذ ورقة وكتب عليها استقالته،

دون أن يفكر في أحلامه المكدسة،دون أن يحقق حلما واحدا

كتبها دون تردد، ودون تفكير...

خرج من غرفته فجلس إلى جوار أبيه وهويرتشف قهوته ليضع يده على كتفه ليعلن أنه جزء منه لم يخبره عن الاستقالة لأنه يعلم أن هذا هوالتصرف الحق وهوشيئا لابد منه.

قال له :

- هل الحرية يا أبي مذاقها كالقهوة ؟

ضحك الأب وقال:

بل هي الحليب الصافي، ولما تكون الحرية قهوة...؟ !

قال خالد:

ألست تعشق القهوة يا أبي ؟....

أجابه بكل ثقة :

الحرية تغذيك وتبهجك....الحرية لا يحويها سواد هي نقية لا يعكر ها شيء، الحرية لا يكفيك أن تعشقها وكفى....

هذه القهوة ة تفر بي لذكرياتي تذهب بي إلى غيبوبة التخدير، تداعب فكري هناك وأنا هنا معك يا ولدي.

ولكن الحليب يغذيك منذ الصغر.....يشد عظمك....يبهرك نقاؤه.....

الحرية مثله، نقية ونافعة ومن دونها لن تقدر أن تمد عطاء لدنياك

ألست حين تولد تطلب حليبا وحرية ؟!.....هكذا هي الحياة حرية كالحليب.

ضحك خالد لبراعة والده في التعبير والإقناع.

وقال له : سوف أشرب حليبا يا أبي بعد اليوم

ضحك الأب ونظر إلى ساعته : أليس وقت عملك يا ولدي ؟

- قال خالد : لن أذهب حتى أرتشف فنجانا من الحرية ! وراح يضم والده قائلا: لما لا ترتشف الحرية معي يا أبي؟

ضحكا كلاهما من صباح ساخر بكلمات أكثر جدًا.

مد يده إلى السكرية ثم قال : سكرٌ بالحرية، وقهقه ضاحكا بكل ارتياح....فلا حرية من دون سكر

ارتشف خالد فنجانا من الحليب الناصع البياض صاف لا يحوي إلا قطعتين من السكر.

على غير العادة صباحه هذا اليوم....وعلى غير مزاج الأمس هو.سعادته اليوم تجعلك تعتقد أن الأرض رحبت وأعطت وأثمرت....تفاؤله جعل حبات التراب تتراقص متطايرة من حوله وهوفي خطاه الأخيرة إلى الوكالة.

ذهب وهويحمل استقالته كأنه يحمل صك حريته....ها هي إشراقة وجهه تعود يدخل بابتسامة الصباح يلقي السلام..... يفر إلى الدرج قبل أن يسمع ردا لسلامه فهوعلى عجلة من أمره فالحرية لا تنتظر. فيكفي قيد ثلاثة أشهر التي انهالت عليه ضربا بالأمس فشعر أنه قيد لثلاثين عاما.

دخل إلى مكتبه فإذا بالأوراق قد لملمها الفساد الأكبر والمفسد الرئيس وراح يخبئها كي تكون دليلا على فساد ضميره الميت.

لقد أضافها إلى قائمة خطاياه...راح يصنع منها هرما آخر متراكم الزلات

ما كان يعنيه أمرها كثيرا فهي تحوي مصيره وهذا يكفي. لم يرغب أن يراها كي لا يرى بصمة استغلاله.

أخذ محفظته، فتحها باحثا عن بعض الأوراق الشخصية التي كانت مرمية بتلك الحقيبة اللعينة.

أخذ ما يريده منها دون أن يهتم كثيرا.

ظل يحصد كل أرجاء المكتب بنظره لعله نسي غرضا له هنا

أوهناك .

خرج ليقصد مكتب المدير.

لم يدق الباب فلاشيء يدعولذلك فكل شيء صار مكشوفًا مستوضح الشفافية.

ها هواللب كعصارة سم يلسع الناس الضعيفة يبتر ما تبقى من جسدهم.

دخل وألقى السلام...كان يقول في نفسه سلام لأهل المكان لا لصاحب المكتب...وضع استقالته على المكتب محاذاة أنظاره المذلة لجفونه المنحنية...

أما هوفكان على قدر كبير من الثقة رافعا هامته شامخا لم يجلس ولم يرغب بالجلوس فكل الكراسي هنا ملك للعجزة وإن كانت ليست متحركة...كل شيء مسروق كل شيء قذر بالنسبة له.

لم يرحَب به كالعادة، هذه المرة لاذ الكل بالصمت فالجرائم علقت بمنشورات البارحة وقد أعلنت أسماء الخونة،لم يسأل المدير عن سبب الاستقالة....؟.

فقط قال:

- حسنا جيد ما فعلت.....

كان يعلم أن الكثير من المناصب هنا يتجدد أصحابها، فلا إحصاء لهم من تردد على هذه الوكالة. ليغادروا الوظيفة تاركين غموضا يلف أفكار الزملاء، هم في حاجة لها ولكن الضمير لم يمت بعد فالملف ينقصه شهادة وفاة الضمير كي تكون مسؤولا بارعًا.

بدأ يقرا رأس الورقة.....فكلمة استقالة تغني عن بقية الكلمات

التي لا معنى لها في رأيه أخذ قلمه من جيب سترته ليوقع على الاستقالة دون أي نقاش....

لم يتكلم خالد حتى أعلنت حريته بذلك التوقيع المرسوم بأسفلها، حينها أخذها بطرف أصابعه لينسخ نسخة طبق الأصل له....ستوضع في تاريخه الذي سيكتبه يوما ويذكر كيف تكون الحريات وكيف هي القيود قال...لست بطلا غبي للأسف..... وقال له أتمنى أن يكون والدك المجاهد بخير..

رنت الكلمات بآذان المدير كأنه رعد قاصف لصومعة وقاره التي عشش بها لسنين.

لم يكن الكلام له ذوق واستحسن السكوت ليختزل كل الدونية والوضاعة التي قد تهد صومعته.

خالد اليوم يمزق صفحة قد كتب عليها قليلا من يومياته،

دون أن ينتبه بأنها غير صالحة للكتابة، فقد وسخت بدم الأبرياء بقعًا عميقة فلا تمحى أبدا إلا بتمزيقها خوفا أن ينسخ هذا الدم على أوراقه الماضية، خاف أن تلامس ورقة العمر الماضي.. فينسخ الدم عليها بقعا لن تمحى فيرمى دفتر العمر.

كم كانت حكاية الكثير من الناس، لم يمزقوا ورقة قد وسَخها عابِر سبيل،، فأهمل كل الدفتر وضاع العمر كله من جراء ورقة مبقعة.

فالوصول للورقة الأخيرة هوالوصول إلا اليوم الأخير من عمر لن تصحح صفحاته.

فليس لأي منا، سوى دفتر واحد، فالحرص عليه واجب فهولك وحدك وستحاسب يوم الإمتحان عنه.

تفقده في كل حرف، وفي كل كلمة

تفقده حين المساء، وحين الصباح...

لا تقلب أوراقه إلا بعد أن تَعلم أن ليس بها بقع قابلة للنسخ.

دعه جميلًا وحرس على ترتيبه.وحافظ على بياض أوراقه لتلمع إشراقا مبهرا في كل مراحل حياتك.

هكذا هوخالد، يرتب دفتره يخاف عليه من كل بقعة، من كل خربشة من كل خدش .

كتب بخطوط عريضة برسم جميل عن الحق والعدل.،عن الحب والصداقة....لمع زوايا أوراقه بالوطنية وراح يرسم لكل ورقة إطارا للإنسانية.كم تعددت العناوين.كلها عناوين رتبها وحرس على جمالية حرفها.

هكذا لم يهمل أي ورقة، فكان ذلك الضمير يحرس على نظافة أوراق دفتره.

اليوم الثاني، بل هوالأسبوع الثاني، لم يشعر بأنه بطال، بل هومرتاح كل الارتياح لا يعمل....لكنه ليس بطالا.

لا يعاني التشرد.....لا يتمتم وليس مهتم.

لقد تذوق مذاقا مرا من تلك الوظيفة. فبقي المذاق عالقا بحاسة التذوق.

راح كل الجسد يرفض طعم ذلك العلقم الذي يلسع كل حواسه

رتّب خالد أحلامه ترتِيبا آخر...دونها من غير أن يرمي ولا حلم. صار اليوم أكثر تفاؤلاً من ذي قبل.

عاد خالد إلى واحات النخيل ليعمل بالأراضي الشاسعة....

يتنفس هوائها الصافي.

كم كان سعيدا هناك، تحت ظلال النخيل الباسق.

ها هويقلب الأرض لزرع نخلة جديدة، بل أملا جديدا على أمل أن تثمر بعد عامها الأول، فهي التي تمنح لصاحب المعروف خيرا....تهديه من كرمها وخيرها ما لا حدود....

أيامه أكثر صفاء، يقضيها بتلك الواحات التي يعتني بها.يدلل النخل ويأنس إلى جواره، فيقرأ رواية من روايات التاريخ لعلها تسمع عن أجدادها فتزيد جمالا وإشعاعا....

هوعاشق لكل نَخلة يرعاها، إنه يعتني بها كما تعتني الأم بصغارها.

ينظر إلى السماء فيحلق قلبه بكل تاج، يتعجب منها لأنها أكثر رفقة من البشر.فيسمع همس حركاتها المتناغمة، في تلاحم وترابط كلها تتشابك بهذا التراب..وبالسماء تحتضن بعضها البعض.. هي لا تطلب غير القليل لتعطيه أكثر. على الجود والكرم كبرت باسقة في السماء،

ما أروعها وما أروع هذه القوة، وهذا العلوالشاهق، الذي يزهر في السماء اخضرارا وثمارا تتدلى.جذورها تتراص، لتلملم حبات التراب، لكي تعلن أنها ملكها، فهي تُعَبر عن وحدة الوطن، عن شموخ راية الحرية.

هي الجنة، هي الكرم والجود،هي الحلوالذي لا يذوب سكره بل يستكين بكل الجسد.

أشرق مستقبل خالد، وصار يملك أكثر واحات النخيل بالبلدة، أصبح ينثر سُكرا على كل الوطن، ذاع صيته، وراجت تجارة هذا

الشاب الأشبه بالغجري، لسمرته التي أشعت من واحات نخيله الباسق، علم أن المفتاح بوطنه،عَلم أن الحلم هوبباطن الأرض يحتاج تنقيبا كي يتحقق، عَلم أن الشهادة المعلقة بالصالون هي سنين تحصيل لا غير...علم أن ذلك الوسام أبدي لن يصدأ.....

لم يبع مبادئه التي علقها فخرا كوسام والده، كان ينثر البطولة بعصر أصبح أبطاله على قارورات العطور، صورهم على كل منتج تجميل فالبطل هوالذي يكون لصوره أكثر رواجا لبيع سلعة ما، لقد أصبح البطل في قاعات عرض الأزياء يجر تقاليده إلى العدم.

إنه الشاب الذي قاوم إلى أن وصل إلى أن حقق أحلامه، وأحلام والده.....ها هوعائد من واحاته بعد غروب الشمس..... فالغد يوم عطلته التي يقضيها مع ابنه، هوالأمنية التي يعلق عليها كل الأماني المستقبلية بعد أن حقق أحلامه سجل غيرها....إنه الطموح الذي يزرعه العقل السليم البعيد عن أفكار جارفة ترمى كشعلة براقة لتنطفئ على الأجساد كفتات جمر لتحرقه.

عاش مرتاحا يجوب الوطن فخرا..يمجد والده في كل نجاح.... يذكر وطنه يصفه بالمعطاء يقدس ترابه وكل أراضيه.

*****

زمـــــــن لن يعـــــــود

حين بدأ نبض قلبي الصغير يهتز بين أضلعي، وصرت أسمع نبضه وأعيي أنه شيء في جسدي ليضخ نبض الحياة فتتناغم أنفاسي في تواصل.صرت أعلم أن الحزن والفرح يسكنان روحي، والإحساس بهما مختلف.متناقضان يقتاتان من جسدي الصغير الذي يبكي تارة ويضحك تارة أخرى. كنت أرى الكبار سعداء فأمنيتي الوحيدة، أن أكبر لأصبح باكتمال القمر، حينها أسحر الأنظار أكون سيدة عتمة الليل أهوي بنوري حيث أشاء. رغبت أن أكون الأقوى، والأكثر امتلاكا وسيطرة هكذا أشتري ما أرغب كأنه صندوق كنز يهدى لكل من كبر. كانت أمنياتي كلها مرهونة بكبر جسدي يسعدني الأمر حين أقف متوازية إلى جوار صديقتي وأنا أخدعها بالوقوف على حواف أصابعي, لأخبرها أني أصبحت الأكبر فتغضب مني لحيلتي التي لا يمكن إخفائها، وأنا أخدع بها نفسي، هي أمنياتي التي تنسجها طفولتي.إلى خيال به أشعر بالسعادة، لأن العالم الجديد والحالم قد بقي القليل للوصول إليه فها أنا ذا بدأت أتقن الجمل كما تقولها أمي بتلك النبرة الحادة.وبمخارج كلمات ثابتة. قد أصبحت أتقن الكلام والتعبير، فقط يبقى أن يزداد طولي قليلا، كي أدخل أبواب عالم الكبار راحلة من طفولة لا أجد فيها سوى قيدا كابح لطموحي. وها هوعقلي يلتفت إلى من هم يعيشون إلى قربي من الجيران يلتصق جدارنا بجدارهم، الهاري نتقاسم رائحة الطعام الذي يذوب متمازجا مع طعام أمي , رائحته تعبق الحي. نتبادل الطعام لتمتزج الأذواق كما امتزجت الرائحة.ها نحن نتشارك السطح فكلنا من دون جدار حاجز لما بيننا من علو، قد تشعر

أنك ببيت واحد وأنت تطل من الأعلى ترى كومة من المنازل، متراصة كبنايات هرمة تسند بعضها البعض تعبت من هموم السنين ,نتقاسم الشارع الذي رحب بأزقته الضيقة.ها هوعمي علي راية الحي،فهوالوحيد الذي يفهمني،كما يفهم كل أطفال شارعنا فحين أبكي يسألني عن سبب بكائي، أستلطف يداه التي يمررها على شعري كي أسكت فيدللني إلى درجة أني أحيانا أصطنع البكاء، لكي أحظى بدلاله. لا أحد

يُشعرني بأنه راض عني غيره هكذا كان قلبي يخبرني، فلا أستلذ اللعب إلا وهوبقربي أقفز أحيانا وأدور أحيانا أخرى وأنا أحدق به سعيدة لأنه الوحيد الذي يقرأني ويحسن فك شفرات روحي البريئة فأفرح فرحا كبيرا وهومنشغلٌ بي وأنا أتقن اللعبة بكثير من الإبداع كي أكون مميزة.

فما إن أجده التفت لأمر أولشخص غيري حتى أناديه.....

...عمي على...عمي على..أنظر كيف أقفز....يلتفت إلي تاركا اهتمامه بما يشغله فيبتسم ليقنعني بأني الوحيدة قيد أنظاره.

ألعب بقربه، فترتفع معنوياتي فألهوبذلك الشغف المتواصل دون تعب ولا ملل، فقط أنا أشعر بأني بأمان وتغمرني السعادة.... لم ينسى أحدا وهويعد حبات الحلوى التي يخفيها بجيبه، إلى حين يفاجئنا بها لتكون عربون شكر وحب لكل طفل.إختارها بلون قوس قزح كل لون له مذاقه، اختلفت وما جعلتنا نختلف, تسيل لعابنا وتجعلنا أكثر حبا له وتعلقا به فهي الأمل المحلى كالشهد على أرواحنا التي لا تستلذ إلا مذاق السكر.بها كان يغرس فينا الأخوة، جعلنا متحابين نلعب معا ونحب بعضنا البعض إننا أبناء حي واحد، بل نحن أطفال مميزون فلا أحد غيرنا يحظى بحلوى عمي علي.ولا بدل له

كبرت وبقي عمي علي هوالأب الروحي لي ولكل أبناء الحي على حد سواء، فهذا الود الذي ساد فينا، جعلنا كأننا ثمارًا من عنقود واحد تكبر متراصّة في ترابط جميل وأخاذ.كان هوالغصن الذي يحمل هذه الثمار فيغذيها لتنموا متآلفة منبعها واحد متشربة من روحه الطيبة...

غرس فينا العدل فلا أحد يتعدى على حق الآخر، فالكل سينال نصيبه من الحلوى بتلك الفكرة الطفولية البسيطة، تذوقنا العدل وأصبح من صفاتنا المميزة كما تعلمنا الصدق فلا أحد يحتال على الآخر، فكلنا نلعب بذلك الانسجام يحرسنا ويرعانا من أنانية قد تغلبنا، فتدفعنا إلى الكذب

ونحن لا نعلم عن الصدق والكذب فارق إلا بما نتجرعه دون أن نعي مذاقه.

نتحسس آلام بعضنا البعض، فإن بكى أحدنا إهتز قلبه فتأوي قلوبنا له فنسارع في كبح ألمه وبكائه بطرق بها عطاء ورحمة... إننا هيكل واحد ونحن أبناء حي واحد كأننا الوطن الواحد.نحب بعضنا حبا قويا منبعه سَيل الخير الذي يحمله لنا ويربينا على دربه.

نغار عندما يحظى غيرنا باهتمامه، من أبناء الحي المجاور، نفتخر كثيرا به وهوالمشرب الذي يعلمنا الأخلاق الحميدة بطريقة تنساب إلى أرواحنا دون شعور.

كفريق واحد، نتسابق لنسمع شكرا منه... لنرضيه... بل لنحقق علامة أعلى على بروج شكره، ونكون أفضل من قبل للاستحواذ على مساحة أكبر في قلبه.....

نحاول لفت نظره فنرغمه على الإهتمام بنا وفي لحظة خاطفة

نخاف على زوايا قلبه أن يسكنها طفل آخر، من حي آخر، فَفَور ما يلتفت حتى يبتسم ويثني على أفعالنا بكلمات تبّرك...

حينها يسود الصمت لأنه راضي عن أفعالنا ويباركها ولا نسمع منه إلا ما تستحسنه آذاننا فيبث السعادة بأرواحنا الملائكية.

كنت أراه كسلطان يعتلي العرش،بتلك الهيئة التي تعلن الوقار والمهابة لشخصه فهوالذي يلبس عباءة بيضاء، ناصعة تدل على نقاء قلبه ويمسك بيده عكازا أنيقة لامعة لا توحي من أناقتها عجزا لصاحبها، بل كأنها من جماليات العمر، فلا يستعملها إلا قليلا حين يطيل الجلوس فيتكئ عليها ليقف رافعا إياها بعد وقوفه....

يلف رأسه بشاش مزركش الألوان يزيد في إشراقة وجهه السمح، يحمل مسبحته بين أصابعه يمررها في غير توقف، في تسبيح متواصل لا يلهيه عنه فعل، ويحمل كتابا بين يديه لطالما كان جليسه وصديقه الحميم

بالقرب من باب منزله يجلس على كرسيه بكل فخر، يتلقى السلام من كل مار..الكل يحبه يقدمون له تحية تفيض تبجيلا وتقديرا.. أحيانا يقفون للكلام معه للحظات، يستشيرونه ويأخذون من ثراء فكره ما يقضي حاجتهم، ويزود رأيهم برأي سديد، لأنه نال من تجارب الحياة ما يجعله قائدا حكيما بها. ما كان ليترك ذلك الكتاب السحري في عناق الصباح، هويضمه إلى صدره ويشده شدا، إنه يثير فضولي في كثير من الأحيان فأنحني عليه، متكئة على ركبته لتكون لي إطلالة على صفحاته، وهويقرا به لعلي أطلع على ما فيه ولكني ما كنت أقرأ إلا كلمات متناثرة لأني لست بمهارته.

أراه ككتاب سحري تعودت على شكله، في أفلام الكرتون كان

مجلدًا باللون الأسود الداكن وقد كتب بحروف ذهبية تشع عن بعد كنور في عتمة الليّل.

لم تكن لي البراعة الكافية في فك لغته وأنا لا أجيد إلا بعض الحروف التي تعلمتها منه. الكتاب يحرك إحساسي ويحفزني للسّعي لتعلم القراءة وإتقانها.

ها قد دخلت الصف الأول، سكنني شوق عارم لتعلم الحروف، فرحت أحاول وأسعى في تقليده وهويهيم بين الأسطر، ويسافر من ورقة لأخرى كأنه في سياحة من دون جواز سفر.أصبح الفضول يصقل فيَ حب المطالعة في بداية مراحل تعليمي أحرف الأبجدية، استحوذت علي رغبة أن أجتهد وأكون على مقدرة في فك اللغز الذي فيه.

فهذا الكتاب أسرَ قلبي بعنوانه اللاّمع، وشدّني إليه. فكثيرا ما كنت أمد يدي لذلك الغلاف لأمرر أناملي على تلك الحروف الذهبية في دهشة وإعجاب.

كان يتصفحه بشغف في كل صباح، كأنه كل يوم يراه بحلة أجمل كأنه يجد شيئا جديدا في محتواه، لا يمله، فكل يوم هورفيقه الذي يجالسه لساعات، فيحدق به ليتوه بين حروفه وكلماته، تاركا في رغبة عميقة للإطلاع عليه، حتى رحت أغار من الكتاب الذي يرحل بوجوده الروحي لساعات من الزمن دون حراك.

كبرنا وتخطينا عتبة الطفولة، وكان عمي علي راية ترفرف بالحي ترسم على كل طفل الخير بريشة ملونة تعبر عن جماليات الحياة.يدغدغ أرواحنا بكلمات الشكر والحب والسلام، لا نستلذ الحياة من دونه فإن مرض أوغاب لأمر ما يسود بالحي جومن السكون، فلا نستمتع باللعب ولا نتذوق حلوى عمي علي فيكون

اليوم مملا، مرا من غير سُكّر.

كل الأهل راضين، مرتاحين لأنه حارس لأبنائهم، ولأنهم يتذوقون ويستشعرون تلك الخصال الحميدة من تصرفاتهم، فهوالذي يحكي لنا عن طاعة الوالدين ويعلمنا آداب المعاملة، يعلمنا الاحترام..وحسن الخلق فنتسابق في تطبيق كل ذلك حتى نسمع شكرا منه، كي نحلق عاليا إلى حيث نطمئن. تفر قلوبنا سعادة من كلامه الطيب لننام راضين فترتفع أروحنا كملائكة الجنة سابحين في أحلام النعيم. ننتظر إشراقة الصباح كي نكون برفقته.هكذا هومحب لكل طفل بالحي كلنا أبناؤه.

كم هومحظوظ، لديه من الأبناء ما يشد عجزه وحاجته.

يخطر لي أنه في هروب دائم من جدران البيت الموحش الذي يغادره من الصباح إلى المساء فيدخل إليه لحاجته الملحة. الباب يعلن أنينا كأنه يصرخ كلما قام أحد بدفعه...من ورائه وخلف أنينه، يعيش هووزوجته خالتي «فاطمة « التي تستأنس بوحدتها في ظلام البيت القاتم الزوايا، يلوح من عينيها فيض من الكآبة التي تجرف كل من حدق بها فيروح يسألها عن سبب الحزن فتصمت في غياب، كأنها هناك تستجمع قوتها وعزمها لتفصح عما بداخلها، فالحزن نام إلى جوار خوفها ووحدة نفسها. تغوص باحثة في مخابئ ذاتها، فتخيب آمال السائل فيروح، قائلا : سامحيني لم أقصد

- فتقول :لا مشكل، وتبدأ بالكلام كأنه سيل تدفق.....

فكثيرا ما كان فضولي يجعلني أتسلل إلى مجالس النسوة لأفسر دموع خالتي فاطمة، وأقف على أطلال ما يحزنها ويبكيها.....

كثيرا ما تفصح عما في داخلها بعد لوعة الشرود المهيمن على

ذهنها، فسمعتها تتكلم عن ابناها اللذان تُوفيا في حادث مرور، وهما في سن الطفولة.كانت إذا جلست بين النسوة تقص حكاية ولداها بمشاهد لا تفارق أنظارها، فتصف خوفها وإحساسها وتهيم بجثث نامت واستحوذت على مرابع روحها فتبكي حسرة، وانكسار ا على فراقهم...

لقد عاشا حياتهما بقرية نائية، حيث توفيا ولداها، إثر حادثا مرور مروع، وهما يعبران الطريق، للذهاب إلى المدرسة التي تبعد عن المنزل بكثير، كان حادثا هز القرية، فمنذ وفاة ابناها جاءت للعيش بالمدينة خوفا من ذكريات خانقة، قد تقتل باقي السنين.

تحكي عنهما والدمع لا يفارقها، تذكر كل محاسنهم وكل نجاحاتهم.تتكلم بقلب محطم....

كانت أمي تستحسن رفقتها فكلما جاء ضيف إلى منزلنا تطلب مني أن أناديها، كي ترفه عن نفسها، وتخرج من هموم الزمن الموحش الذي علم على روحها كآبة وحزنا.

هكذا كانت مرحلة الطفولة، حتى كبرتُ، فهوالذي علمني كيف أكون متسامحة، وهوالذي علمني العطاء، تشربت منه كل ما هوجميل، يخدم حياتي.أصبحت فتاة أدرس بالطور الثانويه،لقد كبرت بعد شوق أن أكون امرأة حرة. ولكن على خلاف ما كنت أفكر، كم كنت ساذجة أتمنى لنفسي شرنقة، تعقد كل حياتي وتقيدني قيدا لا حدود له، بهذه العادات الاجتماعية السائدة بحينا الشعبي المتقوقع بقوقعة التقاليد، التي لا تتيح لي إلا ربع طموحي فكم أصبحت أشتاق إلى طفولتي الناعمة السابحة في خيال الحريات، كم كان كبَري يحرق في عفويتي وحريتي المنسوجة بخيالي الساحر.فصرت أشتاق إلى طفولتي الساكنة

بداخلي تخفي كل أسرارها المدونة على قارعة الشارع، وفي زواياه التي تشرق فرحا من قلوبنا الصغيرة.

كبرت وكبر عمّي علي فسكن جسده العجز بعد القوة وصارت عكازه هي السند، وراح يعول عليها إذا خانته رجلاه في رجفةٍ، تخاصم جسده النحيل. لحيته كساها البياض وراح وجهه يَنْحَلُ كأن الزمان ينحت ملامحه نحتا دقيقا. كل هذا لم يخف صورة وجوده الشامخ في القمة بذاكرتي، بل زاد شموخا وقوة فهوالذي أهدانا مراحل قوته، بعطاء لا تتلصص عليه أنانية.....

كان يومي يرتشف صباحا من سلاماته وبركاته، أخرج كل يوم فتهب سلاماته كنسمات تنعشني، كما يهديني أول صدقات مبسَمه، فألتفت إلى نور الشمس التي لا تشرق إلا من خلال تلك الابتسامة التي يعقبها سلام مرصع بكلمات تحرك فيّ مراحل الطفولة، فكثيرا ما يعقب السلام قوله :

- يا ابنتي الغالية.....

يومي تُفتح أقفاله بمفاتيح السلام، يكون جميلا أحتمي وأرقص حبورا وراء هذه الكلمات كل ساعات النهار.سعيدة أني أملك وسام الطفولة المعلق على جسد ي الفتي، أفتخر لأنه معلمي الأول، ها قد كبرتُ وصرتُ أجيد القراءة، وعلمت أن تلك الحروف المكتوبة على كتابه السحري، ما هي إلا عنوان لما احتواه، فقد رُسمت حروفه بريشة محترف، فكل حرف له عطاء جمالي يعبر عن قيمته.

ظلت أنانيتي تكبر ولم تفارقني فيه، فصرت أحسد الأطفال وهم يجلسون إلى جواره فأتمنى، لوأعود إلى بداية السُّلم فأجلس بأول عتبة سنينا لعلي أعود إلى ذلك الدلال المعتاد، الذي يغذيني تفاؤلا وقوة بها كنت أكبر وأشتد.

أصبح عمي علي كثير المرض فيغيب لأيام يفتقده مكانه ويحن إليه.

الشارع في عزلة...في سكون... في وجع.... لا شمس تشرق إلا تلك المعلقة بالسماء، لقد فارقتني شمس الصباح....صرت أفتقد السلام الملمع لروحي.أفتقد النور المنبثق من وجهه أفتقد الأمل الذي أرتشفه فهوقهوتي التي تنشط الروح، فترقص يوما كاملا، ها أنا أمضي اليوم وأنا أشعر أن نفسي تفتقد شيئا، فهوكل مرابع طفولتي.

هوالذي سقاني من محاسن ديني.وعلمني الخلق الحميد. فبعد حليب أمي لا أحد سقاني غيره

غاب عمي علي عن مجلسه.وعلمت أنه مريض قد أصابه مرض الزهايمر، في مرحلته الأولى وزوجته تخاف أن يضيع لكثرة نسيانه، فتحكم إغلاق الباب فلا يمكن أن تتركه على حرية تصرفه.كانت تعلم أنه يحن إلى أبنائه، يحن إلى لعبي إلى بكائي، هي تعلم أن حياته وسعادته، هي تلك التي من خلف الباب الذي أحكمت إغلاقه، رغم ذلك بقي شيء يناديه من وراء الباب، شيء يتحكم بذاكرته دون ذاكرة هويقوده في غير وعي تفاقم المرض وصار لا يذكر إلا طفولته ينادي لأمه ولأبيه، يضحك أحيانا ويبكي أحيانا ويطلب الحلوى أحيانا أخرى، عاد لأول الخطوات، عاد لأنه يعلم أن لا حلاوة إلا بها، يكفينا تعقيدا حتى رحنا نموت بقيد العقد، ها هويرمي بكل شيء أفرحه وأحزنه، ليعود لحنان أمه ولأمان أبيه، يعود إلى هناك في غير رجعة.

شعرت بالوحدة، لأني لن أراه مجددا ولن يتذكرني، ولن يذكر أيام الطفولة.

نسيت أن أكلمه قبل أن يرحل أنه الأروع.

نسيت أن أكلمه عن علاماتي المتفوقة.

نسيت أن أقول له أن أجمل مراحل العمر طفولتي إلى جواره.

اليوم العشرون من غيابه شعرت أنه العام العشرون في عداد قلبي لقد خرج عمي علي، جَلسَ كعادته على كرسيه بعد أن أهداه الطبيب جرعة من الحرية. لكي يتماثل لشفاء لن يكون ذلك إلا بوطن أحبه فقد بدا غريبا وهويسكن الجدران مقيد الروح.

فور ما ألقيت السلام، رده وقال :

- يا ابنتي الغالية.

خفق قلبي فرحا فإنه تذكرني كيف لا وإن لنا من العمر طفولة لا تنسى من ذاكرة أحد، ذهبت إلى الدراسة وأنا سعيدة كأن الحياة كلها في صباحه المشرق.راحت ذاكرتي تكرر مشهد السلام ولا تمل وأنا أدقق فيه، استوقفني أن عمي علي لم يكن يحمل الكتاب هذا اليوم. فيا ترى هل نسي أن يرافقه إلى مجلسه المعتاد؟

أم أهداه.....؟

أم انمحى من ذاكرته...؟ التي ضاعت، فلا يذكر منها إلا طفولته.

كان عقلي محتارا كيف له أن ينسى جليسه الغالي الذي لا يفارقه ويتذكرني أنا.... !

لم أجد الإجابة عن السؤال وكان لغزا أسعدني لأني الأكثر اهتماما فرغم مرضه ظل يذكر ابنته الغالية

كم كان يومي سعيدا، لا شيء يعكره بعد أيام من الملل، لا صباح مشرق سوى شمس تنير الكون بذاك النور الحارق أحيانا.... انمحت خريطة المدينة من ذاكرته كأنه أعلن أن لا حدود بعد الآن. فالإنسانية كلها واحد، فلا يذكر من امتداد خطواته إلا الطريق إلى المسجد ففور ما يسمع الآذان، يهم بالذهاب مع حشد المصلين لا يتوه ولا يحتاج مرافقا، هكذا هولا يفرط بعبادته، رغم أن المرض استحوذ على ذاكرته بقي يقف في صفوف المصلين الذين لا يذكر ملامح وجوههم ولا ما يفعلون، يكبر فتأوي كل جوارحه إلى الله في خشوع. يكفيه أن يتبع شعلة النور التي يلمحها فور سماعه صوت المؤذن، فتنساب روحه ويهم بتتبعها حتى توصله خطواته إلى المسجد.

غاب عمي علي بعد ذلك اليوم كأنه حضر في وداع أخير ليودعني ويودع مجلسه الذي قضى به سنينا على ذلك الكرسي المتواضع

أصبح لا يخرج إلا للصَّلاة، فهي دليله.عَلمَتْ خالتي فاطمة أنه لن يتوه ولن يخطأ الطريق

ها هي الملائكة تحرسه كما حرسنا في طفولتنا تعيده إلى البيت تصطحبه وهوسعيد بقلب مؤمن.

ظل على هذا الحال بضعة أشهر، وها أنا أتذوق هذا اليوم المفجع هويوم ليس كسائر الأيام يقوم فكري بتذكره في كل ثانية، يخطيْ لساني بذكر اسمه فأقول، زلة لسان.... تدمع عيناي من غير حزن، فأقول، لعلي لم أنم جيدا..... ؟ أتفحص روحي فلا أجد سببا لكآبتي.كل السماء صافية زرقاء فما سبب اختناقي هوفقط إحساس لا أعلمه ولا أجيد حل شفراته.

كنت عائدة بعد يوم مرهق من الدراسة، وفور ما وصلت إلى الحي حتى شممت رائحة الجنائز، قلت أكاذيب، من نفس

كئيبة، هي ترحل إلى الأموات، ملّت فراحت تخاطب الجثث، رغم ذلك الخليط من الرجال الذين تراصوا في شارعنا، لم أهتم وبقيت أخلق أعذارا لكل الذي من حولي اقتربت وأنا أعد خطواتي.كم أنا بعيدة.؟.... أفسحوا، فالشارع ضيق وأنفاسي تطبق علي.ها هم يُكبّرون قبل أن أصل.إني أسمع فقط خطاهم راحلين يحملون بياضا يشع رافعين إياه إلى السماء يسندونه إلى أكتافهم.

إنهم راحلون، لم يشفقوا على حالي، فيقدمون لي وداعا منه.هم يعلموا أني من لبه صنعت وها هوراحل تارك طفولتي بداخلي تبكي وجعا.لم ينتظرني، فقط هوكلمني عن الحياة لم يكلمني عن الموت قط.جعلني أعتقد أني كوردة لا تذبل ولن تموت... رش بداخلي رحيقا لا يفنى..لم يكلمني عن فناء شيء جميل.

راح جسدي يصرخ من وحشته ومن فراقه. أعلم إن الفراق يوما سيكون ولا أحد سيبقى هنا.

بقِيت أمي تكرر كلامها على مسمعي كل يوم لا تبكي عليه، ولا تكفّي بالدعاء له بالرحمة....صرت أقيد كل دموعي....أكبح حرقة الفراق الملتهبة بداخلي...هوأبي الروحي وهوالسقف الذي حماني إني تلك الطفلة التي رباها ولن تكف طفولتي تحاكيني عنه إلى أن أصبح عجوزا رحل إلى جوار ربه وبقي أهل الحي يتكلمون عن موته فيحملون أيديهم بالدعاء له ولهم طالبين من الله أن يموتوا ميتته، فهوالذي مات ساجدا يصلي صلاة العصر بالمسجد فسجد إلى ربه بأنفاسه الأخيرة رحمة الله عليه.

رحل سقف الحي الذي يأوينا تحت محاسن خلقه ويحمينا كم أنا أشفق على طفولة اليوم في غيابه، فلا سقف يحميهم من عواصف الحياة وزوابعها ولا أحد يحتويهم، يلملم أفكارهم يرسم

لهم معالم الحياة لا أحد يذيقهم حلوى التآلف.إنهم يركضون هنا وهناك من دون رادع لا انسجام ولا ترابط هويتهم موقعة من طرف الشارع.شتاتا حياتهم، وعصبية عصفت بأرواحهم، أفكارهم خليط تنوعت مشاربه، طباعهم تزداد حرقا كاللهب لا أحد يقوم أفعالهم وهم متراصين على الرصيف، كثيرا ما كان العراك بين الجيران لأجل هذه البراعم التي سقاها الشارع، فراحت أشواكها توخز بعضها البعض.

بعد شهر من وفاته، سألت عن أحوال خالتي فاطمة...عجزها يناديني بل وحشتي لعمي علي نادتني لأدخل إلى بيته.

كل زوايا البيت تناديه لم أكن وحدي.أسمع الجدران تبكي. من فراقه.أمشي وأشعر بخطواته. البلاط تكلم أيضا، سارعت بالجلوس إلى جوارها وأنظاري معلقة بصورته، كأنه يحدق بي سعيد بحضوري، شعرت بالاطمئنان تفحصت أحوالها، فإذا بها تقول أن له وصية لي.انتابني الخوف وبدأ قلبي وفكري يبحث في ملامح صورته لعله يجيبني بعقلي الجنوني، فقدت كل التوازن. سكنني الحزن والفرح معًا انهمر دمعي محتارًا.

راحت تفتح الخزانة لتحمل شيئا بيدها...لم أراه، قد أصاب عيناي الضباب من غزارة الدمع المنهمر، صرت أمرر يداي على جفوني لأبعد الضباب عنها، حتى تتضح لي الرؤيا.أخيرا لمحت كتاب عمي علي نعم إنه هو....شوقي له كشوقي لذاك الكتاب.

جلسَت بقربي وقالت.....

- هذا لك يا ابنتي أوصاني أن أقدمه لك فاحفظيه...فهوأثمن ما كسب...فقبل أن تغيب ذاكرته أوصاني هذه الوصية،

ارتعبت وصرت أدقق في هذا الكتاب أحدق به لست أعلم إن

كان لي أم لغيري، من قوة الحدث لم أصدق، رغم ما قالته لم أصدق، من هول الصدمة .

أخيرا التصقت يداي بالكتاب لم أتصفحه بل ضممته بشدة كأني أرغب في إدخاله إلى قلبي.

عدت إلى البيت وسعادتي لا توصف، نمت وهوبقربي لم أتصفحه، بل كنت أشتم رائحته شوقا لعمي علي كنت مصدومة إنه قدم لي أثمن شيء.

في صباح اليوم التالي، وقبل أن تشرق شمس الصباح، وأنا أقلب الصفحات فإذا بورقة كتب عليها إلى ابنتي الغالية :

« لطالما توسمت فيك حب القراءة...أشعر بلمعة الإطلاع من بصيص عيناك إنك غاليتي.التي أفتخر بها أتوسم فييها مستقبلا واعد ا....قد صقلتك لتكوني على حب الخير قائمة.

إني أهديك كتابي هذا وهوإرث أبي، حافظت عليه منذ سنين، ولن أستأمن عليه أحدًا غيرك...فخذي بنصائحه، وكوني على خطاه....ولا تتبعي غير صفاته وسيرته.»

كنت أقرأ بعيني، وأسمع صوته بأذني، أبكي بلا توقف...إلى أن وصلت إلى ختام الرسالة التي كتب فيها» زرعت فيك بذور الخير والخير حين يسقى يناطح السحاب.

سلامي لابنتي الغالية.»

وأشرقت الشمس لتطل على النافذة تعلن يوما مشرقا..يوما قلع ثوب الحداد وراح يلبس الزهري ليعلن بداية الربيع.

*****

طيف داخلي

إنهم هناك يبحثون بكل مكان، يفتشون عن شيء ما بالبحر وبالبراري بكل البيوت وبكل الشوارع، لم يتركوا مكانا إلا وفتشوه، بكل نسمة تهب وبكل عاصفة تعصف كاسرة لأسوار الوجود ,إنهم لا يكفون بحثا.كنت هناك أترقب أفعالهم الشغوفة لوجود شيء لا أعرفه.. لم أفقه ما هو..ولا ما الذي ضاع أوما الذي افتقد.

وأنا بينهم أتفقدهم محتارة ومندهشة، وفي غمرة الصمت صاح شيخ بصوت متقطع يكاد أن يختنق، تعالوا...تعالوا إنها هنا

هرع الجميع مسرعين صوب ذلك الهدف رفع شيئا كان ملقى على الأرض فتكلموا دفعة واحدة :

- آه....آه.... إنها ليست هي.

جلس الشيخ على الأرض فأمله تحطم، وما عاد ذلك الجسد قادر اعلى البحث من جديد.أما أنا فقد زادت حيرتي تغلغلا

ما الذي يبحثون عنه؟ !

حاولت الإقتراب لبعض الخطوات, ولكن بقيت بعيدة بعض الشيء عن تلك الفتاة التي بدت في مقتبل العمر ,حملت بين يديها علبة قد ألقى بها البحر لتوه تبدومتوسطة الحجم، فاخرة وأنيقة كأنها علبة لمجوهرات ثمينة استعملتها أحد أميرات العصر الماضي، حيث كانت العلب ترصَّع بالأحجار الكريمة , وتنحت بزخارف فنية متقنة، تدل على تميزها لمعت العلبة تحت أشعة الشمس فسطعت أنوارها تبهر الجميع.....

مدت يدها تُلوح بها :

-تعالوا لقد وجدتها.

وقف الشيخ مسندا جسده المتعب على عكازه وتقدم بخطوات أهلكها التعب .

انتظرتهم حتى تجمعوا ورحت أنسحب بينهم لأقتر ب أ كثر، لعلي أرى هذا الذي وجد ,فأكتشفه عن قرب. الفضول ألقى بجسدي بينهم وألقى بنظري على تلك العلبة، ها أنا أكتشف جزءا منها فلا يوضع بعلبة مثل هذه إلا ما هوثمين، فالعلبة أكيد هدية من سلطان إلى أميرته...

تجمعوا، وأشرقت وجوههم بهجة وحبورا، الفتاة كانت تتوسطهم تمسك بيد الشيخ المسن، كي لا يقع من هول الحدث، وتمسك بيدها الأخرى بذلك الصندوق الذي سحر الأجواء، وألقى على تلك الوجوه ابتسامة كما لوأنها نبع في صحراء قاحلة، هوفقط ذلك الصندوق الساحر الذي غيرهم وجعلهم أشخاصا آخرين ليسوا كالذين كانوا منذ دقائق، يبحثون وينقبون بملامح مظلمة عابسة، أنظار الكل موجهة إليه تملكهم شلال من الأمل، كنت على مقربة منهم أستنشق من أنفاسهم، أنتظر لحظتي الحالمة أنتظر أن أرى ما احتوى الصندوق لحظات وأشبع فضولي الذي تخبطتُ فيه ولا أحد أراحني منه.

فتحت الفتاة الصندوق. نَظرتْ إلى ما احتواه وقالت. بصوت خافت وكلمات بها ذبول اليائسين :

إنها ليست هي، واقتربت من الشيخ تشد على يده خوفا أن يهوي ويقع من شدة الفاجعة.إقترب شاب ذومظهر جميل يبدوصاحب جاه، يلبس بدله، أنيقة ترتسم على هيئته معالم

جاهه. وقوته.

تقدم كل الحضور ليتأكد ما الذي احتواه الصندوق، أخذه بعد أن ألقت به على الأرض بالقرب من حطامها...بالقرب من جسدها المتعب وروحها التي هوت، بعد أن حلقت منذ قليل في قمم الأمل.ما تَحَمَّل الجسدُ فجلست رفقة الشيخ الذي زاد عجزه ويأسه.

فتح الصندوق وأخرج جوهرة تلمع لمعانا يسترسل ليرسم معالم الوجه كصفاء ماء. تلقت الجوهرة كل الأنظار، ولكن لم تتلقى كل الأبصار، لا أحد اهتم لأمرها. لقد تأكد أنها جوهرة وهي بين يديه تتوهج لمعتها بين أصابعه.فقال وهويرمي بها بأقصى ما لديه من جهد إلى البحر.. ما أتفه لمعتك فقد سلطت علينا زيف آمالك.

عجبتُ لهذا الأمر.....إنها جوهرة ثمينة قد تجعله أكثر ثراء، عجيب أمرهم كيف لم تتحرك رغبة حب التملك فيهم.....؟لما ليس لها قيمة....؟ ترى ما الذي يبحثون عنه ؟ !

أيمكن أن يكون الشيء أثمن ؟ فما يكون هذا الشيء الأغلى من هذه الجوهرة، التي لم يكسبها احد في هذا العصر...؟ إنها من أصيل الثروات هكذا زادت حيرتي وارتسمت دهشتي وحلقت أبحث عن حل لهذا اللغز الذي أرقني.إنهم لا يجيبون عن كل تساؤلاتي. وأنا لا أفهم لغة صمتهم. عدت أدراجي، خائبة الأمل وعادوا يبحثون من جديد. يقلبون كل الذي زرع وكل الذي حصد كل صغيرة وكبيرة.

قررت أن أرحل... أن أبتعد... لأخلوا بنفسي في وحدتي.....في عزلتي.... كي أستأنس بقدر من الراحة والهدوء، قررت أن أجلس إلى حيث لا أسمع تساؤلاتي، جلست هناك حيث ابتعدت عنهم

لترحل حيرتي قليلا. بالقرب من تلك الشجرة الضخمة التي لامست أغصانها السحاب باسطة أوراقها في كل اتجاه، كي تنثر ظلا يحمي كل لاجئ إلى حدودها، جلست أنتظر أن يفرغوا من كل ما يفعلون لعلى أقدر على محاورتهم بقيت أنظر إلى أغصانها..إلى عظمتها..وقلت في نفسي لعل ما يبحثون عنه، يكون عالقا بغصن من أغصان هذه الشجرة الشامخة والمهيبة.

ما كان يشغلني إلا أن أكون على وفاق معهم، وأن يكلموني لأتقاسم معهم سر البحث...

رفعت نظري فإذا بفتاة تقترب مني فاق جمالها جمال كل أنثى، نظرت إليها وتمعنت في ملامحها، لا أظنني رأيت هذه الملامح قبلا...؟ تمشي في حياء تلبس لباسا ناصعا البياض تضع على رأسها طوقا من زهور الأوركيد، بلون بنفسجي مشرق، تمشي حافية القدمين، تجر ثوبها الفضفاض بالأرض. تشتَمها مسكا يلفحك بعبق الحياة، ينعش كل المكان، وجهها بدرٌ لا ح نوره على المكان، ما أجملها وخصلات شعرها الأسود الحريري متناثرة على كتفيها، لبست طوقا آخر يتدلى إلى صدرها به قلادة رصعت بأحجار كريمة بلمعة قوس قزح

سألتها من تكونين....؟

انحنت حتى لامست خصلة شعرها كتفي وراحت تهمس في إذني...

إنهم يبحثون عني.....فانا التي لن يجدني غير الحكيم الذي ما غرته مفاتن الدنيا وظل قلبه في مكانه دون أن تجرفه زوابع، وما حطمته هزات وما أغرقته سيول فاضت بأحمالها.

رفعت رأسها، وراحت تمشي وتركتني أتخبط في ارتباكي.

نظرت إليها وقلت : وما بالك تهربين.فكوني هنا بينهم فقد أتعبهم البحث، وهـدت أرواحهم وها هم يموتون وحشة لرأيتك...فلا ترحلي.

قالت.... إني هنا دائما.... ابحثي عني في داخلك فإني بكل روح موجودة في هدوء.....وراحت تكمل السير وقبل أن تغيب عن أنظاري رحت أسألها :

لم تخبريني عن اسمك يا آنسة ؟.

فاستدارت فاسترسل منها نور شعاعه متصاعد إلى السماء

وقالت :..أنا السعادة....وراحت تختفي

هي كطيف راح يغيب دون أن يترك أثرا. تركتني أستجمع قوتي شعرت أني أمتلك طاقة جديدة بقي المكان يفوح بعطرها الزكي.

قررت أن أخبرهم فذهبت إليهم وهم ينقبون وقلت بصوت قوي وعال

هل أنتم تبحثون عن السعادة ؟

نظر إلي الجميع تاركين ما بين أيديهم هبوا إلى جواري دفعة واحدة، تكلموا بصوت واحد أين هي ؟... هل وجدتها..؟

قلت : أجل وهي طيف مر من هنا وأنتم تبحثون في حوائج الدنيا

رأيت في عيونهم دهشة فعلمت أن لا أحد فهمني.

فقلت : هي طيف يسكن أرواحكم فلتبحثوا عن السعادة في داخلها .

تقدم الشيخ وقال لي وهويهش الأرض بعكازه

وهل أجدها....؟

قلت: أجل فكل قلب يضخ أملا هوينبض بالسعادة

قال :كم تعبت وأنا أبحث عنها منذ أن كنت شابا ما أصبتها. وها أنا اليوم ما عدت قادرً ا على البحث وقد سكنتني رعشة العجز،

أرغب أن أحظى بسويعة إلى جوارها قبل رحيلي،

تقدمت منه ووضعت يدي على مكان قلبه وقلت له: هي هنا ابحث عنها في روحك فهي طيف يرغب أن يتنفس،

نظر لي وابتسم.وقال أخيرا وجدتها فقد ضاع العمر في البحث عنها وأنا اسجنها بداخلي.

فصرخ الجميع قائلين والله صرنا نشتم عطرها. إنها كريحان الجنة.

*****

فـــــــــــــــواتـــــــير
عصـــــــــــــــــر

إستيقظت والملل يغتالني, إن شمس الصباح أشرقت. أما عيوني فلا تزال تخاف هذا النور وبقيت مطبقة الجفون خائفة.

كيف يكون الليل قصيرا حيث يبدأ ينتهي ؟.لم أشبع....؟ولم تتوقف شهيتي لنوم.إن هذا الظلام لم يشفني بعد، من علل جسدي ومن تعب روحي لم يصفوا عقلي من الأفكار التي تتزاحم في زاوية من جمجمتي إنها تشوش كل روحي إني متعبة جدا.

أليس غريبا هذا التعب بعد نوم عميق لساعات.؟

أيعقل ِأني نمت كل هذا الوقت...؟ألست منذ دقيقة كنت أصارع أرَقي أتخبط بفراشي، ها هوالليل يخدعني ففور ما أحتضن نعاسي يسارع ليحرك عقارب الساعة، فيختفي القمر وتنام الخفافيش تعود حيوانات الظلام إلى أوكارها , تهب نسمات الصباح وتتفتح الورود، ينتشر عطر الياسمين سابحا بالأرجاء.

تستقبل الشمس يومها كأنها عروس تطل بلباسها الأبيض الناصع المطرز بخيوط ذهبية منسدلة في كل الأرجاء من حولها. إنها عروس في أبهى حلة كل يوم تزف إلى صاحب الحظ، الذي يكون في انتظار ها، لقد استيقظ باكرا قبل موكب الطيور التي تعلن قدوم موكب العروس. إنه استيقظ عند الفجر، حيث هي تتأهب للخروج لتلقي بمفاتنها في خجل وحياء , يمسك بيدها ويمضي سعيدا مليئًا بالأمل ليبدأ يومه معها، يمتص منها الطاقة

والنشاط.

أما أنا فما أظنني سأحظى بها يوما عروسا لي، فما أن أستيقظ حتى أجدها رحلت مع من أسعفه الحظ، فلا ألمحها إلا هناك ترقص متلألئة بكبد السماء، ما إن تراني حتى تلسعني بحرارتها كي أهرب وأتركها في خلوتها ترقص بزيها الذي زاد لمعة وزاد سطوعا.

آه منها، ألا تتأخر قليلا حتى أُشفى من مللي....من كآبتي.... لما لا تمنح جزءا من نورها للقمر لعله ينير حتى في ساعات الصباح حيث لا أزال أحتضن نعاسي حيث أكون في نوم خمول الصباح.

كم أرغب بالرحيل إلى مكان أطلب فيه خلوة، لعليٍ أرتب كل زحام الأفكار التي تبعثرت. وراحت تجعل العقل مشوشا ليس له طاقة لرصد السعادة

كل أيام الأسبوع، وأنا أجلس على كرسي صباحا ومساءا لا ينتهي ذلك الطابور بالبريد، إني هنا لأقوم بتلبية خدماتهم التي لا تنتهي.

تعددت الخدمات فهناك من جاء لأخذ منحة شهرية وهناك من جاء لتسديد فاتورة لغرامة مالية، وما أكثرها في هذا العصر الذي لا تنتهي فواتيره , أما طابور الرواتب فور ما ينتهي يشحن من جديد.

إني أشتاق إلى هدوء بالمكان، هوالضجيج الذي لا يهدأ، وشحنة طوابير لا تتناقص.

الكثير من التركيز فكل خطأ يكلفني خسارة كل أملاكي. مع العلم أني لا أملك غير راتبي الذي أنفقه في متطلبات البيت، فتلك الفواتير التي لا تتوه عن عنوان بيتنا هي كفيلة أن تعيد الراتب

إلى الخزينة، ففواتير الكهرباء والغاز والإنترنت والماء وإضافة إلى وصفات الدواء لأمي وإلى فاتورة الهاتف كلها تجعلني أفلس قبل أن يصل آخر الشهر، فلا أتوقع أني أتقاضى راتبا، بل أظنه نفسه يسحب من الخزينة ليقدم لي، ثم يرد إليها، هي لعبة ذكية لتجديد العزائم في كل شهر.

أبي المتعب لا يملك إلا معاشه الذي ينزل به إلى السوق فينقض عليه فما يبقى منه لا يكفي أن يكون مصروفا يوميا لتسديد فواتير القهوة والشاي كعربون كرم لمجموعة من الأصدقاء، في أمسية أوسهرة من سهراته المنعشة للذاكرة.

كثيرا ما أشعر أني مستعبد فمن قال أن العبودية رق يباع ويشترى لا يعلم عن حقائق تطور البشر شيء , فساعات من العمر تقيدك بوظيفة لا تنال منها إلا ما لا يسد رمقك، ولا ما يكفيك لتعيش إنسانا عصريا متطورا، على حسب ما نثر من جماليات العصر، الذي راحوا يبثون من الإشهار للترويج له، ما يجعلك تولي كل ما لا يستحق إعجابا. فتصرف آخر نقد في جيبك في علبة حلوى قد لمعوا حاويتها لتصبح بأضعاف الثمن , يمر العمر كله وأنت تتقاضى راتبا يكفي ليعود إلى الخزينة في سويعات بعد أن تخرجه منها وأنت تدون قائمة من المتطلبات.

أما الصحة فلا تشغل بالك بها فكل المشاغل لا تتركك تستمع إلى دقات قلبك كم أصبح معدلها، ولا إلى قطرات دمك كم أصبح كيلها..لن تنتبه إلى لون بشرتك التي تصفر وتتجعد ولا إلى نظرك الذي يتناقص وأنت مشغول في دوامك الذي لا ينتهي إلا ليلا أوليس العبيد أكثر حرية...؟ يتجولون بكل البراري وبكل القصور.

ولكن قيل عنهم عبيد.تكفيهم الكلمة وهم يستنشقون الهواء

النقي. فهم الذين لم تقيدهم أرواحهم بتفكير في مستقبل لا يؤمن لهم مأوى ، كل ما لم يخطر ببالك من أفكار يمر بهذه الجمجمة، لا أجد مخرجا لكي أغتال كومة اليأس التي تتدحرج لتكبر، فتدوس قاتلة طموحي فصرت اليوم أطمح فقط أن..أنام و....أنام... وأنام فالنوم هوالشيء الوحيد الذي أثبت فيه حريتي وقوتي.

ففي يوم عطلتي أتحرر من العبودية وأعانق أحلامي التي لم تجرأ أن تكون واقعا.

لا أحد يعلم سري إلا وسادتي التي تقاسمني الواقع والحلم. لم أجد صديقا أمينا غيرها، فالصداقة الإنسانية أصبحت رهان المصلحة، وما لغيري مصلحة فيَ، وأنا عبٌد مأمور في عملي وهيكلٍ يتغذى من روتينه طوال اليوم ,أما وسادتي فلي فيها مصلحة، فهي التي إذا بكيت راحت تلتهم دمعي كي لا يراه أحد. إنها الحبيبة والصديقة، فأذكر أني لم أخاصمها يوما وظلت إلى جواري دائما تتشرب من رذاذ دموعي الذي ينساب إليها فارا من عيناي التي تختبئ عن الناس.

رغم كل تعبي إلا أنني تحايلت على هذا الجسد كي يرفع قامته.. أخيرا تسولت النشاط ورحت أحارب الكسل الذي لفني فما استطعت الحراك إلا بصعوبة.

إقتربت من مكتبي وجلست على الكرسي.

الورق مبعثر، لقد كنت أكتب منذ أيام بعضًا من الخربشات كي أشفى نفسي من تراكم العقد.....

لقد قيل أن المتنفس الوحيد هوالرسم أوالكتابة رغم أني لا أجيد كلاهما، وجدت أنه يجب أن أقوم بكتابة ما يزعجني لعله

يخفف عني همومي ويلقي ببعض الأفكار السوداء على بياض أوراقي. كي ترحل من جمجمتي المزدحمة.

سارعت أجمعها كي لا ألمح ما كتبت من سواد حروفي، الذي وسخ نصاعة الورق. ليست لي رغبة أن أشحن هذه الجمجمة من جديد بعد أن أفرغت بعض الأفكار منها، بعد أن أبعدت كل تلك الأوراق لأترك مساحة فارغة لأضع حاسوبي.

فتحت الحاسوب، ورحت أبحث على المتصفح، على صحف اليوم لعلّ هناك خبرا يخطف الأنظار ويشوقني. بعد جولة دامت دقائق علمت أن الملل زاد مستواه.

فلا شيء هنا إلا الكلام عن الحروب وعن الموت وعن الأزمات، ليس هناك إلا حوارات سياسية، لا خبر يعيد لي نظارتي التي غابت ويبعد هذا الملل عني، كل ما يكتب هوأزمة شعب وأزمة دولة إضافة إلى أفكار تحررية.

كل الصحف تملأ صفحاتها من فراغ أفكارها، فأنا بحاجة إلى ما يحرك روحي نشاطا كما حركت جسدي من غيبوبة كسله.

تذكرت أن لي حساب (الفيسبوك)لم أفتحه منذ مدة فما كان كثيرا يهمني التواصل من خلاله.

لم أتذكر رقمه السري.جربت أكثر من محاولة ولكن فشلت. بدأت نفسي تهذي غليانا لا يطاق، فأنا عزمتُ على فتحه، فرغبتي فاقتْ الحدود رغم أني لم أفتحه منذ زمن إلا أن إحساس اليوم جعلني أفكر في الدخول إلى صفحتي التي هجرتها برغبـــــة مني منذ زمن.

أخيرا فتح ولا أعلم أين كان الخطأ.....

إنها الكثير من الرسائل والكثير من الإشعارات. طلبات الصداقة تجاوزت الخمسين.

ما توقعتُ أني ألفت كل هذا الانتباه.كم أسعدني أن هناك من التفت لغيابي، فكل هذه الفترة أثارت زوبعة على الفيسبوك.لا أنكر أن هذا الإهتمام أشعرني بالارتياح كأن بغرفتي زحامًا من الزوار جاءوا دفعة واحدة يسألونني عن أحوالي.لا يطلبون مني إلا كلمات. من خلالها يعلمون أني بخير. لقد تغير مزاجي في لحظة، إني هنا وكل العالم يبحث عني بكل منطقة هناك صديق أرسل رسالة يسأل عن أحوالي..

شعرت أني أحلق مع سرب من الطيور أزور كل المناطق

قرأت رسالة لصديقي من غرفة الدردشة «إن لي فيه شوقا بعد أن رحل إلى فرنسا وانقطعت أخباره. «

بعث بأكثر من رسالة يسأل من خلالها عني وعن أحوال البلد ولكن آخر رسالة له استوقفتني وحركت من من أحزان السنين حيث ترك بي خرابا كتب في آخر رسالته

- كيف حال أحمد ؟ أخبره أني أنتظره بباريس. فهويعلم العنوان.

حين قرأت الخبر شعرت بحزن أطبق على روحي مرة واحدة، أدمعت عيناي وتحول الملل إلى حزن عميق.

الرسالة كتبت منذ شهر، بعد أن جاؤوا بخبر وفاة أحمد كالصاعقة التي هزت البلدة، إنه فاجعة أهله بعد أن قرر الفرار إلى ما وراء البحر، لقد هرب من عدم الإهتمام، من صراعهم على كرسي الحكم، إنه الشيء المنسي الذي تسول عملا، وتسول بيتا، تسول قطعة من تراب وطنه كي يستقر، ولكن لا حياة لمن تنادي، الكل منشغل بكرسي العرش.

لقد فر إلى هناك، حيث رغب بالحياة لا بالموت، فذاق الموت على زورق مع مجموعة من الأصدقاء، اتفقوا على هدف واحد سارُوا باتجاه درب واحد ملتحمين.

شدوا الرحيل ممسكين بحبل رفيع، لا يقدر على إيصالهم إلى قمم أمانيهم لاقوا حتفهم بعرض البحر بعد أن تمزق بهم حبل النجاة.

أمه بقيت تنوح لفراقه في كل المناسبات، فهووحيدها الذي رحل حاملا خيبات الأمل، فما هوّن عليها هوقبره، فيكفي أنها وجد ت جثته مبعثرة وقد ألقى بها الموج على الشاطئ.

لم يكن أحمد محظوظا إلا في موته كان أكثرهم حظا فأكثر الغرقى لم يعثر على جثثهم،فكل أحبتهم يترجون البحر أن يعود بهم فوضعت أسمائهم في قائمة المفقودين, تأجل عزائهم إلى حين عودتهم جثثا وتأجلت أفراحهم إلى حين يعودون أجسادا وأرواحا. يحملون حقائب الأمنيات.لقد ظلوا حاضرين على موائد العشاء والغذاء, كراسيهم لم تودعهم بعد.

لم يَحذفوا أسمائهم من قائمة المدعوين للأفراح.... لم ينسوا أن يرتبوا غرفهم ويمسحوا غبارها بل أنعشوها بعطر يفوح بالحياة.

وبقيت شمعتهم مضاءة رغم انطفاء فتيلها في واقع الحقائق المقدمة وبقيت جمرة الفراق تلتهب لم تخمد بعد.

الرسالة ألقت بقلبي حزنا، أعادتني إلى أجواء الفاجعة وإلى تلك الجنازة المهيبة التي حضرها كل أهل المدينة ذكرتني حرقة أبيه الذي لم يستطع منع ابنه من السفر، وراح يلوم نفسه ويندب وحدته وقد طرق بابه العجز لقد غاب سنده وانحنى ظهره.

كان والده يبكي بحرقة لا قدرة له في حمل جسده المتعب إلا

وهويُسنده على بعض الرجال، يمد يده بصعوبة إلى النعش، بلمسة وداع أبدية.

أحمد كان الأخ الذي تمنى أن يحقق حلم، قرر أن يرحل ليعود بأمنياته ليكون أقوى وأشد.فقد قيل له أن الأحلام هناك لا تشترى بالعمل المتواصل بل تهدى في ليلة عيد الميلاد.

قلت في نفسي: آه ياصديقي مصطفى هل وصلك الخبر.لعلك ما عدت تنتظر ردا مني.

كنت ألوم هجري لحسابي.فلوتلقيت الرسالة في حينها لأخبرته.

تأخر العزاء في صديقي والموت حق. قررت أن لا أرد برسالة بها عزاءا وكتبت له :

«كيف حالك في الغربة يا صديقي....؟ فكن على علم أن من رحلوا عنا هم يحققون أحلامهم هناك بجنات النعيم أين لا شقاء« بعثتها لعله سوف يجد جوابا فيها عن ذلك السؤال منذ شهر..الذي أعلم أنه تلقى جوابه من غيري.

رغبت أن أتحايل على ذاكرتي وفتحت نافذة أخرى لصديقي فهوصديق الطفولة، رحل مع أهله إلى الجزائر لأن والده يتابع علاجه هناك وقد أتعبهم السفر المتكرر، وبما أنه يعمل بائع مجوهرات أعطى لحسابه اسم بائع الذهب، آخر رسالة صورة لابنه، وهويحمله بين ذراعيه مغمض العينين إنه مولودٌ جديد كتب أسفلها (العاقبة ليك، يشبهني بزاف ولا واش تقول) هي رسالة كفيلة أن تغير مزاجي بأكمله.ضحكت من كل جوارحي وقلت بصوت خافت حقا يشبهك يا مشاغب

رحت أبعث له.

«أظنه الأجمل. فكيف تقارن « كنت أتحداه في الإجابة لم يكن موجودا على صفحته وكل رسالة بعثتها بقيت معلقة.

تجولت بالمنشورات، وعلقت على بعضها كأني أعلن وجودي قمت بإعجاب لكل ما أعجبني.

نسيت مللي لم أهتم للوقت الذي أهدرته، وصرت أحدق بشاشة الحاسوب لساعات.

بعثت صفاء برسالة لتوها، فهي رفيقة الدراسة بأيام الجامعة فكلانا كنا على نفس الاهتمام نعشق المطالعة.ولفقري السخي لم أكن أقتني كل ما أرغب من الكتب وكانت هي مكتبتي التي تزودني بما أشتهي.

فهي ابنة أبيها، تملك ثراء اللغة وثراء المال فما كان يعنيني من ممتلكاتها إلا ذلك الرصيد من الكتب الذي يحوي مكتبة بيتهم.

كنا نتسابق في قراءة الروايات، لنا شغف كشلال ينحدر بنا إلى حيث سيل المعرفة. استمرت الصداقة بعد الدراسة لفترة.. وبقيت تنعش في روح الحياة وتوقد نبض الحرف، ورحت أنا في همومي ومشاغلي مبتعدا عن المطالعة، لأني لم أجد من يصادق رغبتي ومن يقدم لي وجبة من الكتب لم أبحث عن كتب تسيل لعابي.رحلت مكتبتي وصرت أشحن رأسيي بصخب لا ينتهي طول اليوم وبأرقام لا حروف.

لقد ألقت صباحها بسؤال...

- صباح الخير أين هذا الغياب....؟ أرجوأ ن تكون بخير.

بحثت عن جواب، لم أجد ما يقنعها بغيابي وإعتكا في بعيدا عن الكتب لقد أصبحت على غير ما كنت.

إنسانا آخر به شحنة من الهموم.التي تكدست فقتلت في حب كل رغباتي واهتماماتي، أصبحت تائها بين الماضي الجميل والحاضر المفروض والمستقبل المجهول، الذي بوادره لم تلح بنورها بعد وأنا علي مقربة من مرحلة الكهولة.

صار اهتمامي بتسديد كل الفواتير التي تتزاحم كل شهر فتجردني من كل قائمة الرغبات. فما عاد للكتاب الذي كنت أعشق حرفه مكان.

وما عسانِي أن أقول. وهي الفتاة التي استحوذت على روحي يوما، وألِمت بما فيها من هواجس، لقد كانت تصنعني وتقدم لي من كنوز العلم ما يقوم فكري ويشعل في آفاقا من نور.

ذات يوم كان كل شيء جميل، حتى ظننت أن لها مكانًا أبديًا في حياتي فهي داخلي تنموولكن بواقعي، لا وجود لها قد أحطت قلبي بأسوار عالية حتى لا تصل إلى علوه.

-اكتفيت بباقة ورد كي تفهم أني أكن لها ودا واحتراما .

لم تشبع الصورة جوع السؤال...فأعادت تكتب للمرة الثانية

- أتمنى أن تكون بخير..

أحسست أنني ظالم وكاذب رغم أني لا أقول غير الصدق...

فلا أرغب أن أضع لقلبي فاتورة أبدية، لا أقدر على تسديدها مدى الحياة فتكفني الفواتير التي أسددها كل شهر..

كان جوابي:

- أجل بخير..... كنت مشغولا فقط.

لقد عاد مزاجي الممل...؟إنها الصديقة التي أشعلت لهيب الحب

وجعلتني أشعر بعجزي فحتما من ليس له قدرة في تسديد فاتورة قلبه..عليه أن يعيش وحدته الأبدية.

كيف لي أن أفكر فيها وأنا أسدد هذه الفواتير، وهل أحتمل فاتورة أخرى التي سيمليها قلبي....؟.

أشفقت عليها من نفسي فإني صك فارغ وقلب مغلق إلى حين أنتهي من تسديد كمّ الفواتير. وما أظنها ستخضع لدفع قبل سن الخمسين أوقبل انتهاء حياتي.فالدين يلاحقها من كثرة التأجيل لبعض الفواتير المؤجلة.

صرت أكلمها بكل جفاء، لعلها تفهم إني لست الشخص الذي يستحق هذا الاهتمام..

أجبتها بكل تجاهل

«أنا بخير.....وأرجوا أن تكوني بصحة جيدة..»

وأضفت

«إني مسافر... أرجوا أن تعذريني فلا وقت عندي»

لم أترك لها مجالا لرد...لقد قمت بإغلاق كل الثغرات كي لا تمرر حرفا رحت أغلق حرفها للأبد.

قبل اليوم لم أكن كاذبًا، ولم أكن متجاهلًا، ولكن ألتمس عذرا لكذبتي ولتجاهلي.

لم أنتظر منها جوابا.خفت من روحي أن تتفتق أحاسيسها خفت أن توقع فاتورة أخرى.

فقد علمت من الذين لا يملكون فواتير مثلي. أن فاتورة قلبهم أفلستهم وراح العمر كله في توقيع فاتورة واحدة. تحمل رقما ولكنها تلتهم أرقام العمر إلى حوزتها.قليلون هم الذين يملكون

فاتورة مربحة كتب على واجهتها حب أبدي...هكذا كان قراري وللمرة الثانية، أن أغلق حساب (الفيسبوك).ورحت أرتشف قهوتي التي صارت باردة قبل أن يحل وقت الغداء.

*****

قرار إنتحار

أصدرت قـــــراري اليوم سوف أنتحر ؟أصبحت أعي أن وجودي كعدمه، لا أحد يهتم لأمري، فلست بريقا ليراني أحدهم وأنا لا رغبة لي في الإنحناء كي ألون أقوالي وأفعالي كي أعجب أحدًا أوأن أكون ممثلة على المسرح كي يصفق لي المتفرجون، ويمنحوا لي كرسي من كراسي الإستمتاع التي يجلسون عليها.

هكذا أنا، قلبي على وفاق دائم بلساني كأنهما واحد، لولا أن القلب يغلق على نفسه في قفصه لكان في ضيافة لساني يخبزان الكلمات معا.

تعلمت منذ نعومة أظافري أن أكلم الناس سلاما معتدلا، لا أقيد سلامي بإطار ذهبي كما توضع الصور المهملة، فيلمع إطارها ليلفت الأنظار فتصبح الصورة من دون روح بقدر الإطار الذي يخطف الناظر .

دائما أقول أنا لا أجيد الكذب.... ولا أحب أن أكون على غير شاكلتي التي جبلت عليها، لست أجيد الابتسامات الخادعة، ولست أجيد الكلمات والعبارة المقتبسة من الأفلام والمسلسلات الرومانسية لست ألحن كلماتي قبل أن تخرج، فقط أنا أتكلمها كما هي دون المساس بإحساسها، حروفها عذراء تحتفظ بشرفها وعفتها وحيائها لا تملك الجرأة أن تتعرى على نحوهم.

كثيرا ما قامت أمي بلومي في قولها : كوني طليقة اللسان قدمي سلامك على طبق وزينيه شوقا.

يبدوالأمر بسيط أن تكلم الناس سلاما ملفوفا بإحساس كاذب.

أصبح شائعًا أن الكلمات تخرج لتؤدي إلى مصلحة، فهي فور ما تخرج ستذوب كأنها الملح الذي يذوب بالطعام.

أظن أن الناس يأكلون المملح إضافة. أما أنا فلا اذكر أني وضعت بجانب صحني ملاحة كما يفعلون. كل شيء يضيفون إليه لمساتهم التي باتت تخدع النظر..والسمع..والتذوق... تملكتهم قوة في خداع حواسهم.

أتكلم سلاما.كلماته مرتبة من دون عزف خادش لجاذبيته..... وهل يعلى على السلام قول ؟ إني أراه كتاج لا يتوج شيئا أعلاه.

أما أبي فبنبرته الحادة كعادته....بكل غضب.....وبكل قلق يقول لي:

- ستبقي على حالك، فأنت لا تملكين لسان.

نزل الكلام على مسمعي كالصاعقة لم أفهمه أهويشتمني....؟ أم أنه يصف حقيقتي....؟.رحت أتذكر كيف كانت أمي في صغري تعلمني نطق الكلمات بالشكل الصحيح....

أيمكن أن أكون معاقة طوال هذه السنين.....؟ تسرب الشك إلى قلبي.

وقفت أمام المرآة وأخرجت لساني رحت ألويه يمينا ويسارا لأتأكد أنه ليس ممزقا في مكان ما، أوأنه تعرض لشلل أوقف حركته.هوبخير لا يشكومن مرض ولا من ألم.

رحت أهذي حروفا وكلمات، أركز على مخارجها وأكررها عشرات المرات لأتأكد من فحصي له جيدا.

ما أعلمه أني فصيحة اللسان حين أتكلم يشكرني أستاذ الأدب، أحصل على أعلى العلامات وأقوى تقدير.

غريب حال هذه الحياة، يقتلونها ويبيدون تميزهم بالتقمص، فأنا لا أجيد مراقصة حروفي ولست أقدم سلاما كاذبًا لا ينسجُه قلبي ولا تتذوقه ملامحي.

ما أكثر تعاستي حين تعُد أمي قائمة الفتيات الناجحات في حياتهم وهي تقول: وفلانة تزوجت لأنها تملك لسان، وفلانة وظفت لأنها تملك لسان، أما أنا ففي نظر أمي لا أملكه عجب هذا، ولم تثبت إعاقتي من الطبيب.

قررت أن أنتحر وأصبح صاحبة لسان طويل، حتى أثبت وجوده كي ألغي إعلان أعاقتي قررت أن أكون راقصة حروف وأن أكون عازفة أقوال لعلى أحظي بحياة أسعد وأرضي أمي وأبي .

استيقظت ومزاجي معكر، أبحث على هاتفي الذي لم أنتبه أين وضعته البارحة فصرخت : أين يكون ؟....من أخذه ؟..

كنت أتكلم بصوت عال على غير عادتي، أبحث عنه بحقيبتي وبكل مكان، أقلب كل ما هوأمامي.

سَمعت أمي صراخي وهي بالمطبخ..

فقالت : أ سكتي يا طويلة اللسان...فلسانك يحتاج إلى قص.

فاستعدت ثقتي وقررت أن لا أنتحر.

*****

لعنة سيجارة

جالس من وراء مكتبه كعادته، يدخن سيجارته التي لم يخنها يوما، هي نصفه الآخر.

إنها العشيقة الوحيدة، التي تحملته ولم تصرخ بوجهه لإنهاء علاقتها.به لم يجرؤ ليفارقها، كيفما فعلت بصحته، وكيفما ألحقت بأنفاسه الضرر، من دونها هولا شيء، فهي كرامته وهي عنفوانه هي قوته، وهي حزنه الذي يتصاعد دخانه ليطفئ ما بروحه من لهب.

إنه على عرشه جالس بتلك الأبهة التي اعتادها، سيجارته تشعره برجولته، بقوته.

ليست القوة في أن يكون مقداما، حاملا سيفه بالصفوف الأولى للقتال، فيكون قامعا لظلم برشاشه، ليس أن يكون مرددا لشعارات الحق والعدالة دون خوف.....لا أبدا.

هوعلى غير كل هذا، ولكنه يستطعم الرجولة والقوة.فكل مدافع عن مبادئ الإنسانية أسموه المتمرد.

إنهم يرون فيه الأحمق، الذي يرمي بنفسه إلى الموت..أوإلى سجون القيد التي تُفني حريته أما القوة اليوم فهي كم أسقط من امرأة في حفر العشق القاتل، بل كم سرق من حياة كل واحدة، وكسر جسر أحلامها، كم من أنثى غدر بقلبها وأوقعها في شباك لوعته، كم هن الباكيات على فراقه، هكذا ينال رجولته التي يعلوا هاتفا بها على منبر الوجود، يندد بما اقترفه في شموخ يزيده علوا، يهتف على غير حياء، وفي وضح النهار بإهانة نصفه، حيث يثبت أنه المقاتل الحافل بانتصاراته، فلا أحد يتحداه،

فهوالرجولة المستحوذة على مشاعر الجنس اللطيف، بكل خبث وذكاء شيطاني.

حين يقتلُ روحًا كانت تتنفس من فواصل تنهداته.. يشعل سيجارته احتفالا برجولته...التي يحتسيها من فيض دموعها.... أخيرا هويعلن يوم انتصاره. دائما هوالمنتصر فلا احد يعلم أسـراره وهويشرب سيجارته إلا هي...تعلم أن قلبه خاوي، هوعمار لدخانها... تعلم أن ليس من لذة أنعش من لحظات الفراق المدجج بالملامة...فهي التي تحيك المقدمات، وهي التي تحيك الوداع المعلن بقرار لا رجعة فيه...إنها الصديقة والعدوفي آن واحد، هي سيدته التي ألقت بخيامها على ذاته لا يفكر إلا من خلال دخانها المتطاير في فضاء أنظاره.

كأنها لا ترغب شريكا آخر ؟..تحب كسر كل من يشاركها فيه، لا تقبل إلا بنفسها سيدة عليه...وهي تشعل نيران غيرتها كل ساعة بين شفتيه المرتجفتان...ما أسعدها وهي بين أصابعه تنال منه لتكسره معلنة له القوة محلقا في خيالها.

هوالرجل الأكثر قسوة مع نفسه، فهذه النفس لا تؤمن بالحب وكل امرأة تستلطفه هي أضعف المخلوقات فليست أقوى من سيجارته المولع بها وببحر دخانها الذي يتباهى به، يسحبه ثم يزفه عاليا شامخا على ارتفاع هامته.

إنه جالس على عرشه الحالم، مستلقي على كرسيه يتلاعب به يمينا ويسارا في حركة دائرية وهوينفخ عاليا هناك حيث الشموخ....

وفجأة يُصعق الباب صعقة واحدة، فاهتز في هلع، فإذا بها آخر محطات رجولته لم تنته بعد، خاتمتها التي ظل يحيكها منذ شهر.

دخلت عليه في خلوته مع سيجارتهٍ.ركلت الباب ركلة قوية بكعب حذاءها، لم تأبه أن تكون لبقةً كما تَعودها..

صرخت في وجهه :إذا أنت هنا لا يهمك شيء....؟

سكت قليلا ثم قال بكل برود : إجلسي.. لما أنت غاضبة...؟

جلست دون أن يكمل كلامه، كأنها لا تنتظر دعوة منه للجلوس. إن جلوسها رغبة منها لتثبت أنها صاحبة القرار.

اشتم وداعا قادماً منها فأراد أن يلطف الجو.

- ما تشربين..؟

- لم آتي هنا لأشرب.

- ليس آبها لكلامها وهويقهقه لعله يغير ملامحها الملبدة..

إذا عصير البرتقال كعادتك..

رفع سماعة الهاتف.

- من فضلك اثنان من عصير البرتقال البارد.

وضع السماعة وسيجارته بين أصابعه، لم تهزم بعد، ولم يعلن فراقه عنها وظل يحتضنها بين أصابعه يرتشفها وهويحدق إلى كل الزوايا مرتعب الأنظار.

- قالت. منذ اليوم لن أبقى أنتظرك، ليس الكلام المنمق ولا أشعارك قد تسعدني إذا كل هذه السنين لا تكف لاتخاذ قرار زواجنا، سوف أرحل لآني علمت أنك لا تفكر إلا بنفسك.

- ابتسم وهويقبل سيجارته عدة قبلات متواصلة، يتودد لها لعلها تقدم له الحل، في أزمته هذه، إن هذه الأنثى تنتصر، وهذا الذي لن يحصل، ولن يكون، لم يخسر يوما وكل أنثى تزيده انتصارا،

راح يهدئ الوضع لكي لا يخسر وتهزم رجولته.

- قال : كلا بل هناك مشاغل عدة، لم يبق الكثير وأزور والدك لخطبتك.

حدقت به تقرا أكاذيب عيونه.

دخل موظف يحمل صينية بها كوبين من العصير، هدأ العراك واستكانت العيون تحدق بكؤوس العصير، توقفت حمم البراكين لوهلة. لاحقت الأنظار ذلك الموظف حتى خرج.

فور غلقه الباب.

قالت له وهي في أوج غضبها : جئت لأقول لك أن تنساني، أن تكف عن أكاذيبك وومراوغتك فقد عشت ما يكفيني من وهمك، أنت حلقت بي حتى دفعتني من القمم فكسرتني...

سكتت لتستنشق أنفاسها وأضافت : لم أعد بلهاء كما عرفتني بل أنا فهمت معدنك ويكفينا إلى هنا دون تجريح فقد كسرت جرة الحب.

قام يجول في مكتبه، يحوم دون هدف معين، يحدق بها يصطنع هدوءا في ملامحه، يبحث في كلماتها عن شعلة أمل، عن كلمة استلطاف قد يزل بها لسانها

كان كله خيبة وحسرة على الخسارة التي لاحت بوادرها. يتحسر على انهزامه في معركة أنثى.

لم يجد الكلمات، فقد هرب الكذب الذي كان يهتف به كشعار للحب، رحلت أنشودته التي حفظها عن ظهر قلب، لم يجد كلماتها كي يلقي بها لحنا عذبا أمام ملامحها الثائرة، أما الصدق فلا يعرف له طريقا وهويتأتأ تأتأة متواصلة، لم تهديه لما يرغب في الإفصاح عنه.

أما هي، فبكل ثقة راحت تشرب العصير دفعة واحدة وبنَفس واحد فهي التي وضعت آمالها عليه لتكتشف انه رجولة مخربة، ما عاد الزمان يقدر على إصلاحها.

ضربت الكأس ضربة واحدة على سطح المكتب.كردة فعل

خرجت على عجل، تاركة الباب مفتوحا على مصراعيه.

شعر بالإهابة...لم يكمل حديثه بعد، فتلك السيجارة لم تنقذه ولم تقدم له رصاص الوداع..

بقي يحوم في قلق لأن الروح لم تشف غليلها، فتح ربطة عنقه وتقدم مسرعا ليفتح النافذة، يستنجد بالهواء لإنقاذه.أخرج رأسه ليلتقط حفنة هواء تعيده إلى سابق تنهداته، فإذا به يراها ترحل مع رجل أنيق المظهر، وتركب سيارة فخمة، لم يحتمل وصار يهوي غضبا على سيجارته ساحقا إياها.

إنها الخسارة التي راحت تلبد روحه، فدهس سيجارته بكل قوة بالمطفأة وأخذ القلم ليكتب قصيدة جديدة، أسماها..غروري انطفأ...

*****

لقاء لم يكتمل

إستيقظ باكرا لقد أبرم صفقة مع قدره البارحة. على صفحة زرقاء. تواصل معه حيث كان له كامل الحق في الاستحواذ عليه، إنه يتحكم فيه، يقيده.

لقد أعلن سلطته على قدره، فقرر أن يحيك من خيوطه سترة المستقبل يلونها بأنيق العبارات.يصنع منها معطف الشتاء، وسترة الصيف.

من قال أن القدر مرسوم منذ الولادة قد أخطأ.

فها هوذا يرسم قدره بعالمه الافتراضي الذي لا يُعد حلما، ولا هوبحقيقة. بل هوشعلة من نقصان.أعلن تحكمه فيه، فلا هزيمة ولا خيبة والأمل، دائما تجديف في محيط لا ينتهي ولا تحويه حدود.

هوأشبه بالإبحار في بحر لا نهاية له لا رغبة له أن يرسوبشواطئه لفضوله لسطحه ولقراره. إنه سيد قلعته وسلطانا على صفحة زرقاء، كعالم من الخيال يلمع ولا يلمس نوره، فكلما رغبت بالإمساك به تلاشى من وراء لا وجود...هكذا لا نمل من البحث فيه والغوص في أعماقه باحثين عن شيء من موجات خيال نراه ولا ندري إلى أين يقودنا....

هي صفحة حرمت نصاعة ورق، كأن ما بها لم يولد على بياض بل هي نور عاكس، مشتعل يطفئ الوقت وينقضّ عليه بشراهة، ألسنة متقدة حتى تغدوالسنين أيامًا. يتصرف فيها بكل تملك. صنع منهلوسة الكلمات شجاعته... جرأته... قوته...هكذا يرمي بالكرة إلى ملعبه لا خسارة تلحقه فكل الذين تواصلوا معه قد

تستحوذ هم الخسارة يوما ما.

فله حق إلغاء الحب أوالسيطرة عليه. أن يقيم سدا قاتلا لغيره بحظرهم، فهي الحروب الغير معترف بها لا يملك صاحبها سلاحا بل هي شفرات أزرار على الحاسوب تلقي بمواطن النقص والقوة خارجا.

يمكن أن يكون مبدعا تخترق إبداعاته كل الشرائح وكل الدول، يلقي بهبات إبداعه كي يحصل على تصويت أكبر....لغة الإعجاب التي تثير موجة تناقض الأفكار، وتجعل من الممنوع مرغوب ومن السلب إيجاب. هكذا يلتقط المارة فتات أفكار، فتخيم على العقول ظلمة من فكرة مرمية على قارعة صفحة كمصيدة لتائهين.

قائمة أصدقائه تفوق الألف، مع أنه عُرف بين أهله بعزلته وانطوائه، فلا عجب أن تكون نقيضًا لتصرفاتك فالغبي على صفحته، قد يكون أكثر الناس ذكاء، والشجاع لا يحمل إلا شعار حروف، فترتسم على صفحته ذبذبات الشجاعة بأقوال وصور. لن يكون الأمر صعبا وأنت تبرز نقيضك، لن تكون إلا كما رغبوا فهنا بعالم الأموات، يرتشفون الحياة الكاذبة ويأكلون سنين العمر.قابعين من وراء شاشة،إنه عالم آخر بين اليقظة والحلم.

خلف شاشة يصنع لنفسه بروجا لا يطالها أحد، يبحث عن الكمال لسد ثغرة النقص التي تحتويه.

يشعل فتيل الأخلاق، ويصقل نفسه بجماليات الحياة وبمحاسن الرجولة. له كل الحق في اتخاذ القرار فقد ينتقم... أويتجاهل... أويلغي...أويرمي بشباك الحب على من يريد من النساء، فلا شيء يعلن خيانته وكل التصرفات مباحة على (الفيسبوك).

يفرد جناحيه على كل الكون من وراء أنوار شاشته، بغرفة الدردشة قَدْهَمَّ بمواعدتها.أعد شرنقة محكمة التطريز.

كلّمها عن الإخلاص، عن الوفاء، هي حروفه التي ازدحمت بغرف الدردشة. فتكاد أنفاسه أن تغيب وأنامله تلتهب بعزف الحروف بين غرفة وأخرى، تتناثر الحروف في وقت واحد والإحساس ثابت يكاد أن ينام من هول السكون.

الكذب والخداع ليس معترف به، فقد استباحوا كل الممنوع، بعالم أزرق

بسم الصداقة.

رغب منها لقاءا، كي تكون على مدونة ذاكرته.أراد أن يخرجها من صفحة زرقاء إلى صفحة بيضاء في حياته المخملية. رغب أن يدونها على ذاكرته، أن يخرجها من خيال إلى حقيقة، لتكون مشخصة تلامس الوجود وتلتهم أنظاره. رغبها أن تكلمه زخرف هيأته، ورونق روحه، رغب من نفسه أن تكون على عتبتها ليسمع من صوتها رنين شفاهها واهتزاز رموشها.

غدا ستكون في قوائم المعنيين بالواقع...ستضاف إلى قوائم الحياة.

هتف ومجد الخلق والأخلاق على غرفة الدردشة يرمي بحروف متناسقة يبعث بصور لباقات ورود، كي ينسج شباكه ليكون الموعد فاتن على حد جمال حروفه.إنه يعد ليصنع قدرا، ظنا منه أنها هكذا تُصنع الأقدار بباقات أكاذيب وبشهامة مفقودة ورجولة تقال ولا تفعل. إنها المواعدة العشرين فلا ضير في ذلك.

قدم لها موعدا مدون لم يكتب حروفه، بل قام يقصها من غرف دردشة سابقة، هويعيد الكلمات نفسها. من دون مذاق. ولن يكلف أنامله كتابة حرف آخر. فهل هوالكسل، ؟أم هي هواجس صفحة أعلنت مللا لهول ما فيها من كثرة الأصدقاء، وفرط الإهمال في الصداقة الغير واقعية مبنية من غيوم سراب، فكل الحروف لها نفس الإحساس وأنامله أتعبها الحراك.

على الطريقة نفسها كانت تعامله تلك الأنثى، فعلى حد علمها أن الكون التهم الرجولة وكل من على هذه الشاشة يطلب لقاءا، وينحت من حياته تمثال حرية ليضعه شامخا على مرأى الجميع، لقد ألقى به المحيط فلا ملجأ له إلا عالمه الأزرق.

لم تكن أكثر شغفا للقائه..ولكن ما قدمه على طبق من لقاء جرها لمجاراته.

ترك صـــــنارة اللقاء ملقاة ببحر لا يعلم عن أهواله المنتقمة والقاتلة شيء.

يستعد لموعد لا يعلم صاحبته، فتلك الحروف ترجمة لشفرات كيانها لقد رسم خريطة لها، استدل بها على ملامحها الجميلة،

هي أشبه بملكات الجمال، هكذا ترجم روحها من خلال ما رسمت من نور إحساسها على كلماتها.قال في نفسه أخيرا قد انتهى بحثي حتما ستكون رفيقة العمر، وسأسدل ستار الفيسبوك إلى الأبد، فما حاجة لي به وأنا لا أحب الثرثرة والكلام الذي لا جدوى منه.

إنه يكفي أن يكون كروانًا لزوجته يشدو كيف ما ترغب، وحين تعزف فرحته على أوتار سعادتهما.

لبس أجمل ما يملك، وهوأمام المرآة قام بتدريباته الأولى،

فالمسرحية عرضت قبلا ولكن في كل لقاء يكون الطرف الآخر صاحب البطولة في أول دور له. فيجب أن يتمرن على الدور كي لا تفلت الكلمات أمام سحر جمالها الذي حل معالمه من رسم حروف.

أمطر على جسده عطرا. عدل ربطة العنق الحمراء التي تعلن للحب شواهد لونه.

راح يعانق بدلته ويقوم بآخر الرتوش، قام برؤية كل زوايا هيأته في المرآة،

جرب ابتسامته كي يتحكم في سطوعها فلا يسطوعلى أضواء ابتسامات كاشفة ولا يكون شحيحا فيقتل لمعة أنوار الموعد.

إنه شخص آخر في كامل أناقته.

دخل مطعما فاخرا ليعلن سخائه في اللقاء الأول، فكل لوحة ترسم على أرضية بشعة لن تحضي بجمال منظرها وستظل أرخس الألواح وأبشعها رسما.

صنع لنفسه أرضية فاخرة يعلن من خلالها قوته وبذخه... إنه مصمم بارع في اختياراته، يمشي على حدود ذكائه يرسم خطة محكمة ليحكم السيطرة على كل الأمور في اللقاء الأول. إنه بارع بصفات رجل برجوازي.

فرش للقاء الأول بساطا أحمر لا يفرش إلا للأميرات.جلس على طاولة لا تطالها كل العيون. وضع وردة حمراء لتستدل عليها صاحبتها التي تمناها أن تكون كورد ة ياسمين، قد بعثت من زكي عطرها عبر حروفها كما تهب نسمات الياسمين عن بعد لقاء.

كان قد قطف لها الوردة من مزهرية البوابة حيث وضعت لتزيين المدخل..سطا على وردة ليقدمها إلى ياسمينة قلبه إنها رمز من رموز اللقاء.

أشهـــــــــــر الجريدة في وجهه يحدق بها دون أي اهتمام لما كتب على صفحاتها، إنها كحاجز لرصد ملامحها في شغف اللقاء الأول.

دقائق وجاء النادل يسأله عن طلباته

- قال : ليس الآن أنا انتظر شخصا .

- اعتذر النادل وانسحب إلى الطاولة المجاورة أما هوفبقي في شغف الانتظار يحدق بالمدخل يعد الدقائق.

-قال في نفسه: هل جئت باكرا...؟ !

ألقى بنظرة إلى ساعته، إن الوقت مضبوط.والساعة العاشرة والربع.

حيث كان كثير الإنشغال بالوقت ملتهي في عد الدقائق يمحص في ساعته، دخلت امرأة فاتنة الجمال رشيقة الجسد أنيقة إلى حد أنك تخالها عارضة أزياء لقوامها الممشوق وأناقتها الجذابة. فور ما لاح بنظره.حتى ارتشف من دهشته وإعجابه، ما جعل إحساسه يتعرى أمام نظره الشاخص بها.حدق بها بعد أن أبعد الجريدة من أمام وجهه كأنه يقول لها ها أنا ذا، اخذ الوردة الملقاة على طاولته فراح يشتمها عبق الرغبة والشوق.

اخذ يلوح بوردته كي يلفت نظرها أما هي فبعد أن مسحت بأنظارها كل المكان وبقيت واقفة كأنها تنتظر شخصا.هبت بقلبه فرحة كأنه رآها تهتف له مبتسمة، وقف هاتفا بكل

جسده رافعا مشعل الوردة الحمراء إلى علوشاهق حتى سمع صوتا بقربه ينادي...يسرى...يسرى..أنا هنا..

ألقى بنظره إلى خلف مجلسه، ارتبك، صار يحدق بالنادل يستغيث بحضوره للفور كي يخفي خيبة أمله وارتطامه بجدار حلمه الذي ظن انه كالزجاج كاشف لما ورائه.لقد أربكته وانهالت على فكره الخيبة.كان النادل مشغولا بطلبات الزبائن فما انتبه له وهوواقف يناديه.

رمقته أنظار الحيرة من المتواجدين وهوحاملا الوردة التي تطايرت في الهواء بين أصابعه...

يا لخيبة الأمل لقد حسبتها هي....؟

لا.. بل هي أجمل قد فاقت سحرا وأناقة

حتما سوف تصل الآن.

كان يقدم كلمات عذر لنفسه، يجمع انكساره يشد على صبره بإصرار اللقاء..

طأطأ رأسه وهوى جالسًا إلى مكانه.

أما هي فعبرته لتجلس إلى جوار صديقتها، دون أن تهتم لنظراته ولا لوردته التي هتف بها لقاءا كالراية.

مرت صوبه على عجل تاركة عطرها الذي شفط كتلة منه، وهومتناثر على مهب عجلتها لقد استعاد أنفاسه.جلست إلى طاولة خلفهإلى جوار صديقتها، لتنطفئ شعلة الشوق التي غمرته فصار على طوفان فضوله وشغفه يتعلق بقشة أمل

إنها ليست هي تراها لن تأتي...؟ أم أنها علقت بزحام السيارات. هكذا لم يتوقف عن طرح أسئلة الخيبة. إنه على شفا حفرة من

الهزيمة.

لم تخب مواعيده قبلا، فكيف سيقبل الهزيمة، حتما سيقوم بحظرها ثمنا لما اقترفته.

الفرصة الأولى والأخيرة لها فحروفها لن تلمع مرة أخرى.

رغم شحنة التوتر والشوق للقاء، إلا انه بقي يشغل نفسه وهويقلب الجريدة ليتفحص العناوين، حتى أطلت فتاة تبدوفي عمر الزهور تلبس لباسا رياضيا وقبعة بيضاء تحمل على ظهرها حقيبة.

حدق بها في شك من أمره، لعلها هي، فقد يكون رسمه لملامحها خاطئ، ما إن اقتربت منه حتى علم أنها ليست صاحبة اللقاء، فهذه فتاة لم تتجاوز سن العشرين فملامحها طفولية،

أخذ وردته التي شارفت على الذبول راح يداعبها...يكلمها غزلا.. يسألها عن صاحبتها التي تمنعت الحضور، ما إن خلدت كلماته لصمت حتى لمح امرأة تدخل، تبدوسمينة الجسد قصيرة القامة، عريضة الوجه بيضاء ذات عينين سودا وتين تلبس نظارة طبية كانت أنيقةالثياب،ثيابها تُوحي على قدرتها المادية. بدت شاحبة الوجه رغم كثرة المساحيق التي خططت كل ملامحها كلوحة زيتية مرسومة الحدود.

رمت بخصلات شعرها الذهبي الفاقع على وجهها، لتخفي بعضا من شحوبه وترهلا ته. لبست كعبا عالي، يهز من قامتها كي تبدوعلى نحوأطول، مسحت أنظارها كل الحضور. واقفة في مكانها، لم تطله بنظرها وهوفي زاوية مخفية كان يحدق بها.

إنها هي... لقد ارتبك حد الهزيمة، لقد تحطمت أحلامه وتناثرت من حوله بكل الأرجاء، همَّ يجمعها.

- الشكل لا يهم..

-بل الروح هي الجوهر، أليس للروح جاذبية...؟

-إنها تستحق أن أمنحها العمر...

أراد الصمود للقاء حاول أن يلقي بالوردة أمامها لم تجرؤ يده لتهتف بها، لقد قام بإقناع نفسه حاول وهويقول: قد تكون أفضل النساء، ربما يكون قلبها أبيضا..

كانت تقترب كي ترى صاحب اللقاء، فهي لم تعثر عليه بعد، ولم تعثر على رمز الوردة الحمراء.

أما هوأخذ ينسحب من الحلبة، أمسك بوردته.أطبق عليها يده خوفا من أن تلمحها فيتورط.

انسحب في هدوء وهوواقف حدقت به فقد أزعج كرسيه كل الحضور. ازداد قلبه خفقانا.

يا رب...هل عرفَتْني...؟

قام بغرس الوردة في جيبه، حمل جريدته ومشى حتى وصل الباب هرول خوفا أن تلحق به أحلامه السابقة، فك ربطة العنق التي أشعرته بضيق التنفس جرى إلى هناك، حيث يكون أبعد ليخلع دور اليوم. في انتظار أدوارا أخرى لعل المسرح يتوج ببطلة أجمل.....

*****

لن تفرقنا فكرة

في المساء التف أفراد العائلة حول مائدة التفاؤل يحيكون التواصل بعد يوم متعب، يجمعون شتات خيوطه، هكذا هم في كل مساء يبدعون في أناقة أسرة بها يكونون أروع.

أما هي، فقد جلست على الأريكة الفردية، ابتعدت عن الأنظار كي لا تكون قيد الشبهات، لم تكن حيث تعودوا مجالستها، إنها في عزلة على مقربة منهم تقيم مواقد الضجر.

تطوق هاتفها بيديها تخاف عليه إفلات، تحكم قبضتها عليه.

عجيب أن يكون هذا الشيء جزءً امن الكيان، بعد الروح والجسد هوقطعة من حديد استحوذت على جزئها المتبقي.

هي هناك على مقربة منهم تلتهب.

لا أحد يرى شعلة دخانها السابح داخلها، لقد أحكمت إغلاق فوهة أنفاسها، تخاف أن تتكلم فينفجر بركان قد تأجج أويخرج دخانا فيغشى الحضور ضباب مجلس وضيق أنفاس.

هي في احتراق داخلي تسمع صخب الحضور... ضحكاتهم... حواراتهم كأمواج صوتية متذبذبة.تنقطع حينا وتصدر انزعاجا حيًنا آخر.

موجة القلق، ألقت على رسائل الصوت خدشا يسمع دون كلمات ولا جمل، كل الأصوات أضحت خليطا مزعجا لا يحويه معنى.

يحل الصمت والسكون، حين تبحث في زوايا روحها وأحيانا تسمع صراخ صوت يهز طبلة أذنها.

لم تجرؤ على الانسحاب وهي من عناصر المجلس، وجزء من خيوط العائلة.فانسحابها أشبه بالتعري .

هي تحافظ على ستر قضيتها التي لا تعلم ما هي،

إنما المشاعر هي التي تأجج ما بداخلها، تجعلها بعيدة في قلعة الانعزال، تحضن هاتفها، تكلمه وتحاوره تترجاه أن يلقي بموسيقاه عازفا إياها في هذه الليلة، كي يطفئ نيران الالتهاب وهويسكب لحنه عليها.

لقد أصدرت قرارها أن لا تنام إلا على موسيقاه، لم يحصل أن تواعدت والأرق قبل أن تتمدد على سريرها.

ها هي الليلة تستشعره يحوم حولها، يلقي بطول دقائق ولحاف ملل،

أخذت تقتل القلق الساكن بها. إنها تلهيه وهي تمرر أصبعها على شاشة الهاتف، لتطلع على قائمة أسماء المتصلين منذ الصباح عبثا تفعل لإلهاء نفسها لعلها تقتل القلق المخيم عليها.

اللعنة..... لم يعزف هذا الهاتف، ولوقطعة من موسيقاه إنه أبكم هذا المساء.

أخذت تعبث بقلقها الملغم بالسكون، راحت تهزأ به... تسليه... كي لا يتمادى في إرباكها وإشعال مواقد الحزن لديها.

تدخل في غير اختيار، ومن دون رغبة إلى كل الرسائل تقرأها. تتفحص كل الحروف.. بل كل الجمل،تترجم ما بين الأسطر، عادت بذاكرتها إلى شهور قبل اليوم حيث جالت تبحث في براري الرسائل عن شيء لا تفهمه لعلها تحصل على كلمات تأسر أنفاسها فتلقي بها إلى شواطئ الحياة لتتنفس بعد الغرق،

أحكم صمته وأحكمت قبضتها عليه، لم يرن بعد ؟ !

تمنت اتصالا يحمل سلاما..ليس أكثر من السلام، كي تستغيث وتخدع نفسها بلهفة الرد.

إنها هنا بينهم غائبة في حضورهم، في جلسة المساء التي يقتاتون منها ترابطا وتواصلا يرتشفون من فناجين فرحتهم وحزنهم، هم يمتزجون كي يكونوا عائلة.

على موائد الحوار والنقاش، أعلنوا تآزرهم قيلت ألغاز ونكت، تسمع ضحكات، هم يتذوقون الوجود ويقتسمون ساعات الأيام، يأملون غداٍ أجمل. بمذاق آخر، يغمسون أيامهم بالأمل ليكون اليوم جميلا والغد أجمل، يكون التواصل بالكلمات والنظرات بالحركات يشكلون كتلة واحدة.

أما هي فيكفيها سكونها الصارخ بداخلها يخرب كل جميل فيها

تلقي نظرة على ساعة الهاتف تزداد ضربات قلبها، لقد تأخر الوقت.

قد لا تسمع موسيقاه هذه الليلة ما أحوجها إلى عزف هاتفها قبل أن تلتحف نعاسا.

حتما أمنيتها أن لا يخلف الوعد، ويرسل ذبذبات صوته على سماعة الهاتف.

تكاد تفقد سيطرتها أحكمت قبضتها على هاتفها، إنه ألعن مما تتصور.هوليس آبها لما يحويها من قمع، لقد أرادها أن تحترق في انتظاره.

أخيرا بعد كل خيبات الأمل هاهويعزف بقوة لم يهتم للوقت بدأ يسطوعلى سكون الليل.أشعل فرحة بقلبها، قامت بخطفه وهوفي قبضتها ابتسمت كأنها النور الأكثر إبهارا من أنوار الليل

المشتعلة، شرعت تعتذر بصوت خجول من العائلة لتبتعد قليلا.

قررت أن لا تكون متلهفة، أن تتحكم في زر التشغيل، انتظرت حتى كاد ينهي عزفه رغم كل الاهتمام، لم تتفقد صاحب الرقم هي تعلم من يكون القاتل، كانت تنتظر اعتذارا، كم كانت تخاف أن لا يعزف هاتفها لهذا الرقم مجددا، وأن يوضع حيث تهمل الأرقام لهثت أنفاسها وراحت تجيب قبل أن ينهي موسيقاه بل قبل إنشاده الأخير، واللحن الأخير،

أجابت بارتباك كبير :

- أهلا كيف حالك ؟

- مساء النور. عُذرا، أعلم أن الوقت متأخر.

- لا مشكلة تفضل.

أجاب وبكامل ثقة : آسف على ما بدر مني كنت اليوم متمسكا بموقفي أنت تدرين تعصبي للفكرة..أرجوا أن لا تكرهيني.

أجابته : كنتَ متمسك بفكرتك حد التعصب ولكنني لست أحقد عليك، فقط هي آراء ليس إلا، ثم ضحكت لإخفاء ارتباكها.

وقالت : أنا لا أجيد الكره....

- قال : إذا أنا أعتذر لأني كنت متشددًا ومتعصبًا لفكرة هي في الأخير رأي قد يخالفني فيه الكثير.

- أضاف بنوع من السخرية : كنت أظن أنك لن تكلمين قاتل فكرتك.

- قالت: كيف لن أكلمك...؟ وما هي إلا فكرة تموت وتحيا... أضافت تسمح لك الديمقراطية بالتعبير عن أفكارك بكل حرية.

- قال: أشكرك أجدد اعتذاري وليلتك سعيدة، أتمنى أن لا تفرقنا فكرة

- قالت : وهي تراقص فرحتها

- تصبح على خير وأغلقت الهاتف.

استعادت أنفاسها، جلست وراحت تنازل حوار العائلة المتناثر الأطراف. رمت بهاتفها على مائدة الصالون، تركته منسيا، بعد أن وضعته على الصامت كي لا تفسد مذاق عزفه الأخير في هذه الليلة.

ورجعت في غير عزلة تتنهد بين الحاضرين.تنثر ابتساماتها وكلماتها لتشد أنظار ومسمع الآخرين.

*****

حياة

في صالة الانتظار بالعيادة، تجلس وكل الأنظار تحدق بها تبدوأصغرهن. هي فتاة في مقتبل العمر لها جسم نحيف، ووجه جميل بملامح بريئة بيضاءٍ البشرة بعينين سوداوين، تلبس حجابًا وردي اللون، محفوفا بورود بيضاء، على حواف أكمامه، انسدل على جسدها، يظهر رشاقتها وقوامها البهي، تضع خمارا أنيقًا مزينًا بالدونتال زاد في بهائها.

ها هي تجلس ليست منتبهة لأحد.لا تكف انشغالا بهاتفها، لم تنتبه لما يحدث من حولها.

بصالة الانتظار يتبادلون أطراف الحديث هي لا تشاركهم كأن بها ألم يردي بها في غيبوبة ذاتها.

تحني رأسها طيلة الوقت، تمرر إصبعها على شاشة هاتفها، لا ترفع بصرها، إلا حين تسمع الممرضة تنادي على اسم المريضة التي حان دورها.

ترفع نظرها فتمرره على كل الحضور.وتعود في انشغالها مرة أخرى،

الصالة مكتظة بالمرضى، والساعة تشير إلى التاسعة صباحا. إنهم منشغلون يتبادلون أطراف الحديث، كل المواضيع على طاولة النقاش والتحليل.

لا يكون الكلام هنا عن المرض، بل يتناسون كل العلل ويتكلمون عن تجارب الحياة، كأنهم جاءوا حاملين زادهم من كل القصص والتجارب، الكل يستمع للآخر، هنا تطرح أخبار الحي والبلدة

والوطن، اختلفت المواضيع واختلف المكان والزمان.

أخبار لم تنشر بصحيفة اليوم ولن تحظي الجريدة الأسبوعية بنشرها أيضا، إنها الأخبار المميزة التي تسمعها، والصور يرسمها خيالك، على مقاس كل العقول، صور لم تخطفها عدسة، لكي تنال شرفا أوترقية، هم فقط الذين نالوا شرف الترويج لها.هم أصحاب الأعين الشاهدة قد ترحل بهم المواضيع إلى خارج الوطن، وهناك من راحت تفضي بإسرارها كي تأخذ نصحا. إنها أشبه بالعيادة النفسية لا تخرج إلا وأنت مزودا بطاقة موجبة ينتفض الحزن منك ويهرب الخوف والهم

لا تشعر إلا براحة وانسجام بينهم، هنا تتحقق المساواة وتجد للعدالة ميزانها الذي يرسومعتدلاٍ، إنهم متسامحين وإن كان الطبع شرسًا يبتسمون رحمة وتآلفا، يستمعون لبعضهم البعض بكل احترام، يساندون الضعيف المظلوم، ينفرون من الجرم والظلم، كل الأعمار تتمازج فتكون عصارة تجارب تكون مفتاحًا لكل المراحل.

ليس عليك أن تقرأ كتابًا، فتلك العجوز التي كانت تسرد أهم مراحل حياتها.فتسمع روايـة كلها تشويق، تخرج الكلمات بأنفاس متأججة وبحروف مبعثرة، يكون الإحساس أصدق من الصدق، إنهم يقصون من عجائب الكون، ما يشعرك أنك في بلاد العجائب، تأخذ من مشارب الحياة، ما يوسع قدرتك على العيش، ففي المواضيع نفع، فهنا أخبار المجتمع، هي جريدة يصدرها محررون يستمدون مواضيعها من حياتهم، فلا تسمع موضوعا إلا تلته براهين وأدلة، أوأن صاحب الحدث أمامك يتكلم على المباشر.

الجلوس بصالة انتظار الطبيب يثري عقلك، فلن ترحل إلا

بموسوعة من المعارف، لتعود مثقلا بالمعرفة، تتعلم كيف الصبر وكيف المغامرة ؟ تتعلم أن مرضك الذي تحمله، هوآخر همك تتعلم كيف تعيش الحياة بمتعتها دون أي ألم ولا حزن.

كانت صامتة كأنها شاردة تحلق بخيالها بعيدا، الكل محتار لأمراها لم يتجرأ أحد لسؤالها إلا عجوز.

- قالت : يا بنيتي.. هل أنت بخير ؟

لم تسمع السؤال وهي مشغولة بهاتفها.

فرحت أكلمها وأنا بقربها.قلت : يا آنسة إنها تكلمك.

رفعت رأسها ونظرت إلي محتارة، ...فعلمت أنها لم تفهم ما قلت

فقلت لها: إنها تكلمك....وأشرت بأصبعي إلى العجوز التي تجلس مقابلها.

حدقت بتلك العجوز قليلا لعلها تكرر ما قالت، ولكن العجوز لاذت بالصمت، وبقيت تشبع نظرها في التحديق بوجهها الجميل الذي أحنته، مخفية ملامحه السمحة

- فقالت.. ما قلتي يا أمي.؟

- هل أنت بخير يا أبنتي ؟

ابتسمت فزاد مبسمها من جمالها، كأنها أشرقت نورا، خجلت لسؤال واحمرَّت وجنتيها وقالت:.أنا بخير.

كان الجواب غير مقنع، الكل ينتظر جوابا طويلاً به تشرح، لما جيء بها لطبيب فراحوا يحدقون بها، يتساءلون في أنفسهم عن هذه الصبية التي بينهم تنبض بالحياة تبدوكزهرة في معمر

التفتح.

كيف لها أن تستشعر الذبول، وهي بهذا العمر، وبهذا الجمال.

رغم الصمت الذي عقّد لسانها طيلة ساعات الانتظار، إلا أنها تملك ملامح تتكلم براءة وطيبة، تصب الشهد على كل الحضور.

فيكفي أن تلقي بنظراتها إليك، حتى تشعر أن الدنيا تتفتح مرا بعها ولم يحل الذبول بها بعد.

إنها الوردة التي احتفظت بمرضها، بوجعها، داخل أحشائها لا تئن ولا تبكي....

هي تبتسم في كل الوجوه، معلنة لهم عطر الأمل، تناضل لأجل أن يظل منظرها مشرقا، لم تغير أي لبنة من لبناته، هي تزرع الأمل كما تُزرع السنابل.

هنا، بهذه الصالة تلقوا نصف العلاج منها، دون أن تتكلم، دون أن تناقش وتحلل، كما فعلوا.فقط هوسكونها ينطق.جمالها يعلن أن العيادة للأصحاء يجعل المريض يطمئن على حالته قبل أن يعاينه الطبيب.

تهتز الغرفة بصراخ رضيع وهوبحجر أمه، تهش على كتفه لعله يكف بكاء، فلا تجده إلا يزيد صراخا، وقفت أمه به تحوم وهي تحمله وتطبطب على كتفه، حتى شعر بهدوء فوقفت من مكانها تداعبه وتطلب من أمه أن تتركه لها بين يديها وفي أحضانها.

عجب أمرها، كيف لم تحركها كل تلك المواضيع، لم ياستهويها شيء إلا هذا الطفل الباكي !

أُعجبوا بتصرفاتها ورأوا فيها تربية ولباقة، ظلوا يتمنوها في خيالهم عروسا لكل غال.

أما هي، فحملت الطفل وهي تداعبه.وهويبتسم، بعد بكاء صاخب، أصبح يسمع الحضور مناغاته وقهقهاته، حتى دخلت الممرضة تنادي اسمها، حينها عرف الحاضرون أن اسمها حياة، كأنها مشتقة من اسمها فليست إلا الحياة. أعطت الطفل لأ مه واقتربت مني قائلة بصوت خافت :

- أريد منك خدمة لوسمحتي.

- تفضلي

- هل تدخلين معي إلى الطبيب فقد جئت وحدي ؟

- أجبتها : نعم أكيد....أمسكت بيدي وهي تبتسم قائلة : شكرا معذرة إذا كان يزعجك الأمر.....

- قلت لها : لا أبدا..... بل يسعدني مرافقتك فانا بعدك تماما وهكذا نوفر على الممرضة مناداة لأسم آخر....ضحكت وبدا عليها الإرتياح.

دخلنا معا لنستطب، جلسنا متقابلتين أمام ذلك المكتب الفاخر

الطبيب منهمك في حاسوبه تارة، ويكتب على الورق تارة أخرى

كأنه لا يرانا ولا يتحسس وجودنا لم ألحظ أنه رفع نظره ولكنه قال بعد دقائق من الإنتظار :

- من منكما التي جاءت للعلاج ؟

فقلت له : كلانا، أما هي فبقيت صامتة تنتظر مني شرحا، كأني الرفيقة والمحامية في آن واحد.

أضفت : هي الأولى فقد رغبت أن أدخل معها

رفع نظره ونظارته في آن واحد، وابتسم وقال:

جيد من هي الأولى إذا ؟

حدقت بي، كأنها تأمرني بأن أتكلم فقلت له : حياة.

هي كانت تحمل ملفا كاملاً فقدمته له. فما أن بعثر الأوراق على مكتبه حتى وقف من كرسيه المتحرك مرة واحدة وقال لها :

تفضلي آنستي.

تقدمت إلى طاولة العلاج من وراء حاجز.

كلمها بصوت خافت كأنه لا يرغب في إطلاعي على مرضها، هي إسرار المهنة.

خلال بضع دقائق عاد إلى كرسيه وشرع في كتابة الوصفة.

أما هي فعادت إلى مكانها مبتسمة ومشرقة، كما هي أنوارها لم تنطفئ من رعب المرض، لم تكن شاحبة كالذين زاروا هذا المكان !

- قال لها : هذا الدواء نفسه الذي كتبته قبلا تناوليه لثلاثة أشهر.

- قالت : وهل مرضي بالمرحلة الأخيرة ؟.

- قال: بل بدأت بوادر المرحلة الأخيرة...سكت لبرهة وهويستمر في كتابة الوصفة ثم قال : تناولي المسكنات، أحرسي عليها.

كنت أسمع ولا أفقه من حوارهما شيئًا....

قلت في نفسي، شفاها الله حتما هومرض لن يسكن هذا الجسد طويلا فلا يسكن المرض الحياة، إنها فتاة قوية،قدم لها الوصفة فوقفت وهي تضع مجموعة الأوراق الطبية والوصفة بحقيبتها، وبادرت بالمغادرة، مشت بضع خطوات ثم عادت أدراجها كأنها نسيت شيئا.

- قالت :كم بقي لي يا دكتور، هل حين يكتمل الدواء سوف أنتهي.

نزل علي الكلام كالصاعقة.كأنها جُنت، نظرت إليها.....أصبحت أشعر بوهن جسدي من جراء هذا الخبر.

أجابها وهويكتب على الحاسوب، إجابة عابرة كأن السؤال قد قيل ألف مرة قبلا فلا أهمية للجواب.

- الأعمار بيد الله يا ابنتي.

تأهبَتْ للخروج، فقلت لها قبل أن تخرج : انتظري

وقفتُ متناسية أني جئت وأنا أحمل ورقة التحاليل للمعاينة.

قال الطبيب: دورك....اعتذرتُ وخرجتُ مسرعة لألحق بها.

لم ترحل بعد، فقد كانت تهدر وقتا مما تبقى من حياتها في انتظاري - أمعقول أن الموت تسكن هذا الجسد... !؟.صرت على ثقة أن هذه الروح أكثر الأرواح قوة، إني الآن أتوسلها أن تضعف، كي أطبطب عليها، لأواسيها،رغبتُ أن ترتمي على كتفي، كي تبكي لعلي أتفنن في إبداء قوتي لكي أحتويها وألملم جراحها، هكذا تمنيت، ولكن لست إلا الأضعف.

يا ترى لما هي تبتسم.... !؟ لما تشرق علينا نورا هكذا....؟

هل تريد منا أن نموت وتبقي هي حية فينا بهذه الابتسامة ؟ !

لحقت بها وقد صرت لا أدري لما جئت، ولما أنا عائدة،نسيت أني مريضة، نسيت وجعي الذي كان بأحشائي، نسيت ورقة التحاليل التي كنت حريصة عليها لأنها تحمل شفرات مرضي الغامض.

نسيت كل واقعي وكل حلمي.

فقط أنا اليوم إلى جوارها أتمنى لوتدمع عيناها لوتنحني ضعفا....

كيف أواسيها وهي باسقة هكذا، كيف أرَبّتُ على حزنها وهي ترتفع عنفوانًا وحياةً تقتل المرض وتدمره.اقتربت مني وقالت بكل هدوء كما لوأن الطبيب لم يقل شيئًا يقلقها :

- لم أتعرف عليك بعد ؟ فما اسمك..؟

أجبتها ولا أعرف هل أرسم ابتسامة ردا على ابتسامتها أم أبقى على خوفي وعبوسي.

أخيرا بعد تجربتي لكل الملامح قررت أن أقلدها بابتسامتها الشرسة التي انقضت علي كمخالب تخدشني إلى الأعماق.....

- قلت :اسمي أمينة .

-قالت وهي مبتسمة : تشرفت بك.

مشيت معها لنخرج من هذا الجوالذي قضى عليها وعلي، جعلها تعد الأيام وجعلني أبكي لفقدان شروق الشمس هذه....

مشينا وأنا أتفقد عيناها، لعل الدمع تحجر بها، ولكن ما كان بريقهما يدل على الموت أبدا، وما كانت روحها مستسلمة، إنها محاطة بسور متين لا يكشف ما في داخل ذاتها. هي الأقوى على الإطلاق....

سألتها بعد ما احتملت ما لا يحتمل

- ما هومرضك..؟

قالت: بكل ثقة وبكل ثبات أعاني سرطان بالكبد....وقد جئت

اليوم إلى الطبيب وما رغبت إبلاغ أمي، فهي كثيرة القلق على حالتي...وما كان مجيئها معي سيغير شيئا، بل سيزيدها تعبًا وتوترًا.

ثم أكملت : أشكرك يا أمينة لرفقتك، فرغم أني لا أخاف القدر.. إلا أنني أخاف الضعف.

وها قد منحتني قوة وأنت تقاسميني سماع الخبر..فمنذ مدة وأنا أعالج وأعلم أنه علاج لينقص التهاب المرض لا ليوقفه....

لقد أسرني ما كانت تقول، فهي البطلة على حلبة المصارعة فليس أشرس من هذا المرض الذي تقاومه بابتسامة قاهرة له.

بينما كنا نمشي نظرت إلى ساعتها.

أهوالزمن الذي سوف تلاحقه ؟ أم بدأت في تشغيل عداد الأجل،

- قلت لها وأنـا احبس دموعي وأخفي نظراتي : هل أنت مستعجلة ؟

- قالت: لا...أبدا...إن أخي يدرس بالمدرسة القريبة من هنا، وأنا دائما أرافقه إلا إذا كنت في أشد مرضي، وها هوموعد خروجه إقترب وعليَ أن أذهب.

وقفت تودعني، شكرتني، ثم قالت:

لعلنا لن نلتقي بعد اليوم، فأتمنى لك حياة طيبة، سررت بمعرفتك.

كانت تتكلم ولم أستطع قول كلمة فأصابني الانحباس حتى في الكلمات كنت أرغب لوأنها تتوقف عن قول كلمات الوداع، لوأنها تقول لي سنلتقي العام القادم، تراه أي وداع قصدت.....؟ وداع الموت أووداع الحياة، مشت بثبات ولوحت بيدها لتودعني

بآخر الملامح وبأجمل ابتسامة.

انهمر دمعي، عدت إلى البيت من دون أن أعلم كيف وصلت، دخلت مهرولة إلى غرفتي، أرغب بالصراخ، شيء بروحي يطبق على أنفاسي، أجهشت بالبكاء.

لما هــي...؟ هذه الــوردة الباسقة....؟ لما هذه الابتسامة العطرة...؟لماذا الموت يخطفها كيف لامها أن تعيش.....

من يرافق أخاها إلى المدرسة...؟ كيف سيتعود على فراقها....؟ كرهت المرض أشد كره.. أصبحت رغبتي في الانتقام لها.رغبت لوأن الموت شخص لتوسلته أن يرحل دونها. هي البنت التي لن أنسها ما حييت، هي التي علمتني أن أكون قوية، لا أخدش ابتسامتي بحزن، ولا أترك همومي تقتل لحظات السعادة، علمتني أن أكون مؤمنة بالقدر أن استمتع الوجود إلى آخر رشفة....

غيضي فاق الحدود، وكآبتي يومها خنقتني، رحت أفتح حقيبتي، لأخرج ورقة التحاليل مزقتها إربا.... فهي الشيء الوحيد الذي انتقمت منه نثرتها من دون رحمة.....

*****

وزير ولكن....

.....على مائدة الإفطار، وهويرتشف قهوته.قام بالبحث في الجريدة عن القرارات الحكومية الجديدة

ة أعلن خبر تغيير الوزراء، هوفي انتظار صفقة كهذه إنه ينتظر كرسيا في وزارة.

ليس مهما، أي كرسي في الوزارة سوف يعتلي، فكل الذي يهم أن يكون ضمن التغيير الجديد، لكي ينال رغبته في دخول عالم آخر لطالما تمناه، بدأ يقلب صفحات الجريدة، لا خبر يعلن التغيير ا في الوزراء، لم يعلنوا بالصفحة السياسية عن قوائم الوزراء الجدد...هي الخيبة.

انتابته موجة إحباط، أفقدته طعم قهوته... إنه لن ينال مبتغاه ولن يتحقق حلمه.

فور ما وضع الجريدة.... رن هاتفه.

إنه صديقه الذي نال كرسي بالبرلمان العام الماضي.

أجاب على هاتفه من منحدر إحباط:

- صباح الخير كيف حالك

- بخير أحمد الله.... لقد سمعت أن هناك تغيير بالوزارة هل الخبر حقيقة.

- أجل والأمر قائم إلى حد الساعة، لقد اتصلت بك لأجل الأمر نفسه، عليك أن تقل الطائرة، لتكون هنا هذا المساء، ستكون ضمن قائمة الوزراء الجدد الذين سوف يتقلدون المناصب هذا

العام.

أشرقت ملامحه وقال:-هل سيعلن عن المناصب الجديدة اليوم...؟ !

- أجل الأمر طي الكتمان إلى حد الساعة،ولكن وجودك هنا، قد يكون مسهلا لحضورك في الاجتماع الذي سيقام عقب الإعلان عن القائمة الوزارية الجديدة.

ثم قال:- أستودعك الله، وأرجوأن تلتحق لأناقش بعض الأمور معك، قبل الإجتماع ثم أضاف:-إذا نلتقي مساءا....

تغيرت ملامحه، أشرقت،هب واقفا من أمام المائدة مسرعا نحوغرفته، لقد ألقى بمجموعة من الثياب في الحقيبة....

وهويحاول الاتصال بصديق له يعمل بالمطار، هبت عليه مجموعة من الأفعال دفعة واحـدة، يجمع ملابسه ليضعها بالحقيبة، يقوم بمسح حذائه، يخرج بذلة جديدة كانت في إنتضار الموعد هي أيضا.

أعاد الاتصال مرات عدة، وهويحوم هنا وهنا ك في توتر.

- أوف.... لما لا يجيب ؟...

أخيرا بعد الاتصال الرابع أجاب :

- أهلا كيف حالك هل أنت بخير...

- بخير لم نرك منذ مدة أين أنت اشتقنا لك يا رجل....

كان لا يرغب في الخوض في أي موضوع، عقله بالكامل هناك، حيث يسمع اسمه إلى جانت أسماء أخرى من قائمة الوزراء الجديدة.

كلمه عن حاجته دون مقدمات، التهم فرحة الصديق وسؤاله عنه، الوقت ليس في صالحه للخوض في عناق الأحباب....

- قال: لقد كلمتك في أمر مستعجل، أن تحجز لي تذكرة إلى الجزائر العاصمة لأسافر اليوم وفي أقرب وقت...

- خيرا يا صديقي هل من أمر.....

- خيرا... فقط هي أعمال عالقة ويجب أن أكون هناك اليوم...

- لك ذلك، فهناك طائرة على الساعة الثانية هل أحجز لك بها ؟

- نعم...وأرجوا أن تعذرني فقد كنت مقصرا معك، سوف يكون لنا لقاء بعد أن أكمل أعمالي إن شاء الله.

- لا عليك..أنا أعلم كيف العمل يأخذ من وقت الأحباب والأصدقاء لقاء، إذا سأنتظرك.

- أشكرك يا صديقي وإلى حين اللقاء مساءا إن شاء الله...

أغلق هاتفه وهوفي استعجال من أمره.

لن يخبر أحدا فالأمر سري للغاية.

قام متجها إلى المطار بعد منتصف النهار، كان في سرعة البرق،

سلم على صديقه في استعجال،كأنه سيطير محلقا بجناحيه لا بالطائرة، هب يجري بين الركاب، يزاحم المارة بالمطار، كأنه لا يرى إلا ضيق مكان، وزحام مزعج،كان منشغلاً في أعماقه بكومة الأسئلة المتساقطة عليه...

هل سأعين وزيرا للشؤون الدينية...؟

أم وزيرا لشباب والرياضة....؟

أم وزيرا للصحة....؟

لا يهم بأي وزارة قد أنصب، فلا يتطلب الأمر إلا بعض من التدريبات والاجتماعات المكثفة، كي أحفظ الشخصية الجديدة، وكيف يمكنني أن أكون بالميدان...

استلقى على كرسيه تتقاذف إلى عقله الكثير من الأفكار، تتطاير من حوله أمواج السعادة، تحط على قلبه موسيقى الحب، إنه النجاح والوصول إلى المنبر الأعلى....

كان أول المسافرين صعودا لطائرة، لشوق سفره، كطفل يرغب في اكتشافها كأنه لأول مرة في رحلة على متن طائرة كمغامر.... أقلعت الطائرة وانتقلت إلى مسارها الجوى، وبقي هويعد الدقائق متى ستحط في مطار العاصمة، ومتى سوف يعلن عنه وزيرا...عليه أن يتأهب لكل المواقف وأن يكون مسلحا بكل جماليات الكلام، كي يرقى إلى خطابات وزير.....

ما هي إلا دقائق حتى اهتزت الطائرة فاقدة لتوازنها، هلع الركاب بعد السكون أصبح الصراخ وصخب يهز الطائرة فاستفاق من أمنياته، لقد عم الرعب.

قامت المضيفة بطمأنتهم، وهي تبتسم في وجوههم، تبث لهم ملامح الطمأنينة، إشارة الهدوء والراحة، كلمتهم عن هدوء الأجواء،وكانت تبرر الاهتزاز بأنه حادث قد حصل لن يجر عليهم أي سوء.وتقدم لهم كلمات الترحيب وتعلن أن الأمر بخير لا داعي للقلق وزودتهم بما يرغبون من مشروب كي تثلج أرواحهم.... هدأت الأجواء وعاد الجميع إلى صفاء أذهانهم.

وما إن هدأت الأجواء حتى عاد الاهتزاز مرة ثانية أعنف من ذي قبل،...ارتبك المسافرون فارتفع بكاء الأطفال وعم الصراخ...

هل من منجد في كبد السماء، راحوا يضعون أقنعة الأكسجين ويلبسون سترة النجاة...

استفاق من حلمه وهويصارع الموت....صار يصرخ... أنقذني... أنقذوني... يُسبح ويستغفر.. يقرأ من آيات القرآن الكريم، ما حفظ، يطلب النجدة والنجاة..

- آه ليتني لم أسافر إنني غبي... ما أبلدني... لأجل كرسي أموت هكذا جوا ممزق الأطراف بين السماء والأرض، ما أفعل بالوزارة، أريد أن أعيش أرجوكم... ارتمى على كرسيه، يجهش بالبكاء يتوسل الله معجزة...أرجوك يا رب أن تنقذني

راح يصرخ قائلا : لا أريد أن أموت....أرجوكم أنقذوني لا أريد وزارة لقد فتح عيناه وهويتصبب عرقا إنه نور النافذة، لقد سكت صراخ الأطفال لقد هدأ الركاب، هل هي الموت، ما هذا السكون...اهتز مرة واحدة وشهق شهقة، استيقظ ذلك الجسد فتح عيناه، نظر من حوله.

- إني هنا، أنا كنت أحلم، الحمد لله. مازال في هول الكابوس حتى رن المنبه فاهتز جسده وراحت أنفاسه بالارتعاش، كاد أن يغمى عليه رعبا.... فما إن علم أنه المنبه حتى...قال: الحمد لله...

استعد ليذهب إلى عمله في المقهى كعادته، يقدم للزبائن طلباتهم سعيد بذلك، قانع بما لديه.من دون تطفل على منصب آخر.....

*****

دعـــــــــــاء وغيث

طالت أيام الجفاف، وصار التكلم عن لعنة السماء حديث الساعة،

لقد ألقي بأهل المدينة إلى حساب الدنيا قبل الآخرة.

كان أهلها يبحثون بين أخطاء أفعالهم، عن سهام الظلم لعل كسرها لا يعيد رميها من جديد.

قرر أهل الدين وأئمة المساجد أن يقيموا صلاة الاستسقاء، لعل الله يمنحهم سيلا، ليطفئ ظمأهم، ويعفوعنهم، ويغفر لهم، كومة سيئاتهم.إمتلات المساجد من كل حدب وصوب, ما كانت لتسع الطالبين والمستغفرين، فاضت بالخَلق ففرشت الطرقات والأرصفة بصفوف المصلين، دعائهم يلامس السماء.

يهتز الدعاء بقلوب خاشعة، ناظرة إلى حكم الله، في أمر جفاف أرواح يطلبون رحمة وعفوا وغفران....

شخصت الأبصار إلى السماء تنتظر سحبا محملة بالبركة.

صار للمدينة وجه شاحب ولباس متسخ من غبار حط عليها لسنين

كأنها مهجورة من سكانها الذين يعيشون على أرض تيبست وكفت عطائها وصارت تصدر تصدعا بكل الحقول.

خمدت ثورة العباد، خمد كيدهم الذي اتقد شرا وكان دخانه يخنقهم فخافوا موتا قاهرا من شح السماء.

أصبحوا يتوددون لبعضهم البعض، كأنهم نادمين من شر ما

كانوا يفعلون،إنهم ينتظرون لعل الله يقدم من سيل الغيث هدية لهم، فهدأت براكين الشر التي لطالما تصببت حمما على بعضهم البعض، من أنانية جارفة لكل إنسانيتهم.

في صباح الغد، تلبدت السماء فخرج الناس إلى قارعة الطريق، ينتظرون متى ترمي بحبات المطر، مدوا أيديهم يتوسلون رذاذا. لم تعلن عن سيلها بـــــعد، إنها فوقهم تنتظر من أفعالهم استقامة، تنظر إلى ملامحهم اليائسة..

بقيت لساعات تدغدغ فيهم النجدة.

أتعبتهم حرقة الانتظار، جالسين على الأرصفة محدقين بالسماء، يجرون هنا وهنا ك ليتحسسوا رذاذها الأول على أيديهم.

لم تُلق إلا بقطرات بعثرتها النسمات، ثم راحت تكف....هي تراهم كيف يتمزقون، كيف هم من شوقها يتألمون تَراهم يترجونها.

بعد أن عبثت بكل النفوس، ها هي تلقي بما حملته لهم من رزق ترميهم بخيراتها، فاهتزت الأصوات تكبيرا وحمدا، تناثرُوا تحت سيلها مدوا أيديهم كأشرعة تتقاذفها الأمطار، خرجت النساء إلى الشرفات، إحتفاءا بها يستشعرون حباتها على أجسادهم.

الأطفال يرقصون على طبول بركها. كل الأيادي ممدودة إلى السماء تدعودعاءا صادقا.كان قد جُمع إلى يوم المطر، تصاعد الدعاء أكثر من حبات المطر التي تهطل...إنه الغيث، وإنه الدعاء المستجاب برحمة الله.

إنه الخير... لقد حلت البركة هذا العام لقد ارتوت الأرض، أنجبت من سنابلها التوائم، جاء الربيع بحلة جديدة، تلون بلون الجنة، نثر من عبق الورود عطرا تحمله النسمات في كل الأرجاء،

تجملت المدينة كعروس في كامل بهاءها افترشت زرابي مطرزة من ورود وياسمين وزهور المروج....تغير وجه المدينة وأصبح مشرقا.

عمت الخيرات، ولكن عادت النفوس إلى شر أفعالها، غزتهم الأنانية، هم في صراع لأجل ما نثر من خير، إنهم يتقاتلون لأجل ما وهبته لهم السماء، نسوا يوم كانوا يتوسلون، تراها هل تعود يوما للعطاء وهي ترى الصراع لأجل ما قدمته، أم أنها تكف عنهم السيل كفافاً أبديا.

*****

حفل وداع خاص..

هزمه المرض، بعد أن كف ذلك الجسد في عرض قوته. راح الضعف يستلقى، بجواره لم يرغب به صديقا فكان يثور عليه ... يصرخ به... يحاول النهوض في محاولات متكررة دون استسلام، يهز جسده. لا يكف في مصارعته، يناشد قوته التي راحت في سفر.

صرخ يلعن ضعفه، وهويرتعش في محاولة أخرى للوقوف لعل الجسد يستجيب.

قال في هبات صراخه المعتاد:

- أين أموالي أيها السارقون.

هز الصراخ سكون الليل، فالساعة الحادية عشر ليلا، حيث خيم الصمت على مسامع النائمين...استيقظ أبناؤه في هلع يجرون في أرجاء المنزل باحثين عن السارق، هرعوا له يسألونه بملامح غشاها الخوف والرعب...

- أين السارق.....؟

أجابهم بعد أن استعاد صوته من صراخ متواصل..

- أنتم السارقون، لقد سرقتم أموالي وذخيرة العمر....نظروا لبعضهم البعض متعجبين.فبدا الأمر أهون من دخول سارق للبيت.

تنفسوا الصُعداء وتذكروا آخر وصفة كتبها الطبيب.

«قدموا له ما يرغب ويشتهي «...هي آخر وصفات العلاج في

آخر مراحل المرض والله هوالشافي.

قاموا يحاولون تهدئته,وإقناعه أنهم يحفظون أمواله، ولكن دون جدوى، فماله الذي أحكم سلطته عليه، وكان يدخره لسنين طويلة، وهويَعُده ويشتم رائحته في كل شهر، ها هواليوم قد فارقه لشهور، بعد أن صار يصارع المرض الذي أثقل جسده وجعل رجلاه لا تقدر على حمله، لقد أصابهما الوهن وغدا الجسد شيئا خاويًا لا يحويه إلا هواء وشحنة غضب، إنه الضعف بعد القوة.

حاولوا جاهدين إقناعه بأن ماله على حاله، وأنهم يحكمون حراسته كما كان يقوم بغير غفلة منهم، فأدخلوا إلى قلبه الطمأنينة بعد جهد.

طلب منهم أن يجلبوه إليه..فقاموا بوضعه بين أيديه، هي الأمنيات الأخيرة ليس لهم إلا تلبيتها هي وصفة آخر مرحلة المرض، عليهم السماع والطاعة.

ولكي يهدأ ويطمئن.وينجوالليل من صراخه، ويرتاح الجسد من محاولاته الفاشلة في قتل العجز.

لقد تركوه بين أحضان ماله الذي بات يقتله الشوق إليه، فأمسك بحزمة من ورقه، وصار يضحك كطفل أعيدت له لعبته، يعبث بماله بين أصابعه..يقبله وهويغني له مواويل شعبية في حفل الوداع الذي أعده على شرفه الليلة.....

هم استعادوا نعاسهم بعد ليلة متعبة...

صباحا استيقظوا فوجدوه ملتفا بلحاف الموت. ساكن الجسد مبتسم الثغر.. مشرق الملامح... لقد رحل بعد حفل الوداع، بعد أن نثر قبلاته على ماله الذي بعثره، لقد رحل سعيدا من دونه،

بعد أن قام بتمزيقه انتقاما لسطوة قوة، قد كانت في وهم أمواله.

*****

ذبذبات حلم

يرتشفها سكرا بقهوته، كل صباح، يستمع لها وهي تقدم نشرة الإخبار على تمام الساعة السابعة، حيث يجلس إلى قهوته، إنه يرتشفها صوتا شجيا رنانًا.

لا أحد يعكر مزاجه إلا غيابها، حين يقدم الأخبار صحفي غيرها. هي قبلته إلى الغد منها يستنشق باقات الأمل.

لا يعلم عنها إلا اسمها، فذلك الصوت هوهويتها وروحها التي اخترقته بعزفها على مسمعه كل صباح، هي لحن الأمل، ذبذبات صوتها كفيلة أن تسعده طوال النهار، فهي طاقته الموجبة.

اختار أن يكون صحفيا، لأنها أججت فيه لقياها، رآها هناك بعيدة تقف على منابر النجاح.راح يتسلق ليصل إلى حيث هي.

احتفظ بسر عزفها لنفسه، يكفي أن يكون هوالجمهور.

خاف أن ينبذ في عصر لاحت بوادر الامتزاج فيه، وصار العالم عار كل ما فيه مكشوف، على مرأى من الكل، أما هوفقد لف روحه بصوتها المتدفق على أمواج الراديو، لحنها يرقص في أرجاء غرفته كل صباح، يستمع إلى صوتها الشجي، يتمسك بحباله لساعات وهويردد ما قالت في صباح اليوم....

خاف أن يكتشف أمره، فصار على عزلته يستعيد أنفاس الإخبار الصباحية.

أصبح لا يشبه غيره، أعلن تميزه وصار له طموح للوصول إلى حيث تقف على شموخ منابر النجاح.

شارف على التخرج حيث إقترب من علوها.

جلس صباحا إلى جوار الراديو، قام يضبط الموجة كي يستقر صفاء عزفها إلى صفاء روحه، بقي وقهوته يتشوق لصوتها، فمن دونها لن تستقر روحه..انتظر أكثر من عادته على تأجج لهفته التي فاضت، أخيرا تكلم صوت آخر يعلن بداية حدادا لوفاة الصحفية التي اغتالتها أيادي الغدر.

هبت زوابع جارفة، جرفت كل المستقبل، سقط من بروج كان قد شارف للوصول إلى قممها. لقد هوت روحه حزنا لم يتذوق مثله قط،

قرر أن يسافر بعد أن شيع لحنها الأخير راح يودعها جسدا خامدا مع حشد المشيعين. تغلغل بينهم وهويجر كل أمنياته ويحمل جثمان أحلامه، يذرف جمر الوداع....

لا يعلمون أنه صاحب العزاء في فراقها، الغادرون لم يقتلوها بل قتلوه أيضا.لقد دفن كل أحلامه إلى جوارها. صار يستمع إلى ذكرياته.أصبحت قهوته مرة منذ أن فارق لحن عزفها. لقد إغتالوا سكره.

*****

الفهرس

-1 إهداء.....7

-2 تقديم المحسن بن هنية.....9

-3 مقدمة.....14

-4 غيبوبة إحساس.....17

-5 مفاتيح في غياب أقفال.....25

-6. زمن لن يعود.....58

-7 طيف داخلي.....72

-8 فواتير عصر.....78

-9 قرار انتحار.....90

-10.لعنة سيجارة.....93

11 - لقاء لم يكتمل.....98

-12 لن تفرقنا فكرة.....107

-13 حياة.....112

-14 وزير ولكن.....122

-15 دعاء وغيث..... 127

-16 حفل وداع خاص.....131

-17ذبذبات حلم.....133